نبضات تحت الرماد

عنوان الكتاب: نبضات تحت الرماد

الكاتب: زكريا لعموري

الناشر: ماروشكا للنشر والتوزيع

ISBN: ٩٧٨-٩٩٦٩-٠٠٠-٠٠-٠

الطبعة الأولى: 2025

المدير العام: بن وارث أمال

لمراسلة الدار:

إيمايل: marouchka.edition@gmail.com

هاتف: 213698670203+

العنوان: تحصيص تاقوفت توسيع رقم 17 .أم البواقي .الجزائر

جميع حقوق النشر الورقي والإلكتروني والمرئي والمسموع محفوظة للناشر، وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ أو التعديل إلا بإذن منه.

نبضات تحت الرماد

رواية

زكريا لعموري

دار أوشى
للنشر والتوزيع

كيف للروح أن تحمل هذا الانكسار؟ وكيف للزمن أن يمضي
وهو يترك فينا ندوبًا لا تندمل؟

إهداء

إلى الذين لن يفتحوا هذه الصفحة أبدًا..

إلى العابرين الذين لن يعلموا أنّ هنا إهداء ينتظرهم..

إلى الغائبين الذين لا يجيدون حتى الإصغاء..

كتبت هذه الكلمات وأنا أعرف أنّها ستترك مهجورة..

كما تترك الأرواح المنهكة على أرصفة النسيان..

هذا ليس إهداءً، بل صدىً خافتًا أردت أن أُخفيه بين السطور..

سرّ صغير لا يبحث عن قارئ..

ونصّ يتيم لا يطلب عينًا تلمحه..

وإن وصلت هنا صدفة فأنت تتلصّص على وجع لم يكتب لك..

وغالبا لن تفهمه..

مقدمة

لم يكن يفترض أن يكون الحبّ هكذا، كان يجب أن يكون ملاذًا آمنًا، بيتًا واسعًا لا تضيّقه المسافات ولا الأوقات. كنتُ أتخيلُ أنّني أستطيع أن أتحدث إليك في أي لحظة، أن أكون حاضرة في حياتك مثلما كنت حاضرًا في أحلامي. كنتُ أظنّ أن الحبّ يعني أن أكون أنا وأنت فقط، دون خوف أو اضطرار لإخفاء ضعفٍ أو زيف قوّة.

لكنّني اكتشفت أن الحبّ أحيانًا لا يشبه ما نحلم به، كنتَ أجمل مما تمنيتُ، لكنّني كنتُ أقلّ مما تستحق. كنتُ أتوق إلى أن أكون لك كلّ شيء، لكنّني لم أستطع أبدًا أن أكون حتى شيئًا ثابتًا في عالمك.

أتذكّر ليالي كنت أكتب فيها عنك دون أن أكتب اسمك، أذكر كيف كنتُ أقول لنفسي إنّني محظوظة بوجودك، رغم أن كل جزء في قلبي كان يدرك أن وجودي في حياتك لم يكن كما أردت. كنتَ كالحلم، متألقًا، رائعًا، لكن بعيدًا عني بما يكفي ليجعلني أشعر أنني أعيش في ظلّك، لا معك.

ربما لم يكن الحب خطأك، ولم يكن خطئي. ربما كانت المشكلة في توقّعاتي، أو في قدرتي المحدودة على فهم أن الحبّ لا يضمن البقاء. لكنّ ما أدركه الآن، وأنا أكتب إليك هذه الكلمات، هو أن الحبّ يجب أن يكون أكثر رحمةً مما كنّا عليه.

أتمنى لك حياةً مليئة بالأشياء التي لم أستطع أن أكونها، أتمنى أن تجد من يراك كما كنتُ أراك، من يمنحك دفء الروح دون أن تخشى انطفاءه.

وأخيرًا، إذا كنت تقرأ هذه الكلمات الآن، أرجو أن تعرف أن الحبّ الذي أحمله لك لم يكن يومًا منقوصًا، بل ربما كان أكبر مني ومنك معًا. لذلك، أحببتك بما يكفي لأدعك ترحل إلى مكانٍ تكون فيه أكثر سعادة.

أذكر أول مرة التقينا يا أمير، وكأنها حدثت بالأمس. كان ذلك في مساء شتائي بارد، والمطر ينهمر بغزارة كأن السماء تحاول غسل كل شيء. كنتُ في طريقي إلى المقهى الذي اتفقنا أن نلتقي فيه، مترددة، أفكر إن كنت سأتعرف عليك فورًا، أو إن كان هذا اللقاء فكرة سيئة من الأساس.

عندما وصلت، رأيتك تقف هناك، تحت مظلة مائلة، تُحاول عبثًا أن تحتمي من المطر، وابتسامة صغيرة تُشع على وجهك. بدوتَ مألوفًا بطريقة أذهلتني، كأنني أعرفك منذ سنوات.

- أمير؟

قلتُ وأنا أتقدم نحوك، محاولة أن أتجاوز ارتباكي.

نظرتَ إليّ وابتسمت، ثم قلتَ:

- يسرى؟ توقعت أن تبدو عيناكِ بهذا الشكل... لا أعرف لماذا.

ضحكتُ، ليس لأن العبارة كانت طريفة، بل لأنك قلتها بعفوية أربكتني أكثر. شعرتُ أنني مكشوفة أمامك، وكأنك قرأتني قبل أن أقول شيئًا.

- أوه، عذرًا على التأخير، كان الطريق مزدحمًا...

قلتُ محاولًة تبرير تأخري.

- لا بأس، المطر كان سببًا جيدًا للتأمل.

أجبتَ ببساطة، وكأنك كنت تنتظرني دون استعجال، وكأنك كنتَ هناك من أجلي فقط.

دخلنا المقهى، وجلسنا في الزاوية القريبة من النافذة. كنتُ أراقب المطر المنهمر على الزجاج، بينما كنتَ تراقبني. لاحظتُ ذلك بالطبع، لكنني كنتُ أهرب بعينيّ إلى الخارج، محاولة أن أبدو طبيعية.

- إذن، هل هذا هو مقهاكِ المفضل؟

سألتَ وأنت تُزيح شعرك المبلل عن جبينك.

- أحب المقهى، لكنني لم أجلس هنا من قبل.

أجبتُ بصدق، ثم تابعت:

- ربما سيصبح كذلك بعد اليوم.

- أتمنى ذلك، سيكون من اللطيف أن أكون سببًا.

ابتسمتُ، تلك كانت أول مرة ألاحظ فيها خفّة دمك التي لا تحتاج إلى جهد.

بدأ الحديث يتدفق بيننا بسلاسة غير متوقعة، سألتني عن المطر، وعن الكتب التي أحب قراءتها، وعن المدن التي حلمتُ بزيارتها. كنتَ تستمع باهتمام حقيقي، وكأن كل كلمة أقولها تحمل معنى خاصًا لك. وعندما سألتك عن طفولتك، وكيف كنت تقضي أيامك، شعرتُ أنك تأخذ نفسًا عميقًا، قبل أن تبتسم وتقول:

- طفولتي؟ كانت مليئة بالمغامرات الصغيرة. كنتُ أقضي وقتًا طويلاً أتسلق الأشجار، أهرب من والدي عندما كان يطلب مني أن أدرس. أعتقد أنني كنتُ طفلاً مزعجًا، لكنّي كنتُ أبحث عن الحرية أكثر من أي شيء آخر.

- وهل وجدتَها؟

سألتُ بفضول.

نظرتَ إليّ للحظة وكأنك تفكر مليًا قبل أن تقول:

- ربما في لحظات قصيرة، مثل الآن.

كنتَ تنظر إليّ مباشرة، بعينيك الداكنتين، بطريقة جعلتني أشعر أنني جزء من تلك الحرية التي كنتَ تبحث عنها.

حين انتهى اللقاء، وقفنا عند باب المقهى نتأمل المطر الذي لم يتوقف. شعرتُ أنك متردد، وكأنك تريد قول شيء لكنك تخشى أن يبدو اندفاعيًا.

- هل أستطيع أن أراكِ مجددًا؟

سألتَ أخيرًا، بصوت بدا وكأنه يحمل شيئًا من الخوف والرجاء.

- نعم، بالطبع.

أجبتُ بسرعة، ربما أسرع مما كنت أريد، لكنني لم أستطع إخفاء لهفتي.

قبل أن نودّع بعضنا، نظرتَ إليّ وقلت:

- يسرى، لا أعرف ما الذي سيحدث لاحقًا، لكنني سعيد لأنني التقيتُ بك اليوم.

ذلك اليوم يا أمير، لم يكن مجرد لقاء. كان بداية لشيء أكبر مني ومنك، شيء لا يزال يسكنني حتى الآن، وكأن المطر الذي شهد ولادة قصتنا لم يتوقف أبدًا.

ذلك اليوم يا أمير، كان مثل أي يوم آخر، أو هكذا ظننته. استيقظتُ متأخرة قليلاً، فتحتُ نافذتي على صباح رمادي، المطر يتساقط بخفة كأنّه لا يريد إزعاج أحد. أعددت كوب قهوتي وجلستُ أمام هاتفي، كنتُ أنتظر منك رسالة، كما اعتدت دائمًا. حتى عندما كنا نتشاجر، كنتَ تبدأ يومك برسالة قصيرة، ربما عابسة أو مقتضبة، لكنها كانت طريقتك لتقول إنك موجود.

لكن رسالتك لم تأتِ، في البداية لم أقلق. ربما كنتَ مشغولاً، ربما كان هاتفك مغلقا أو كنت نائما بعد ليلة طويلة. لكن شيئًا ما في صدري كان ثقيلاً، شعورٌ خفي، كأن الكون يحاول أن يهمس لي بشيء لا أريد سماعه.

اتصلتُ بك. مرة، ثم مرتين، ثم ثلاثًا. كان هاتفك مغلقًا، بدأتُ أرسل رسائل عشوائية، أغضب من صمتك، ألومك على إهمالك لي، أطالبك بأن تخبرني أنك بخير. لم أكن أعلم أنني كنتُ أكتب لنفسي، أكتب في فراغٍ لن يصل إليك أبدًا.

في المساء، وأنا أعبث بلا هدف في هاتفي، ظهرت رسالة من صديقٍ مشترك. كانت قصيرة، مقتضبة، كأن الكلمات فيها بالكاد خرجت من بين أسنان أحدهم:

« أمير... رحل. لقد... انتحر».

قرأتُها مرارًا، مرة، مرتين، عشر مرات. الكلمات كانت تقفز أمامي، تتبدل أماكنها وكأن عقلي يرفض تصديقها. رحل؟ كيف؟ ولماذا؟ ولماذا لم تخبرني؟

ركضتُ إلى هاتفي، بحثتُ عن رقمك، اتصلتُ مرة أخرى، الهاتف لا يزال مغلقًا. جلستُ على الأرض، أقبض على شعري كأنني أحاول إيقاظ نفسي من كابوس.

- لا، هذا مستحيل... أمير، لا يمكن أن يفعل ذلك... أمير قوي... أمير وعدني!

بدأتُ أردد هذه الجمل بصوتٍ عالٍ، وكأنني أحاول إقناع نفسي أو الكون بأنك هنا، بأن هذا مجرد سوء تفاهم سخيف. لكن الصور بدأت تصل، صور من جنازتك. صور لوجهك الذي كان ممتلئًا بالحياة، الآن صار باردًا، مغلقًا، وكأنّك أغلقتَ على نفسك إلى الأبد.

ذلك المساء، جلستُ وحدي في غرفتي المظلمة، أحتضن هاتفي كأنّه سيعيدك إليّ. تذكرتُ كل كلمة قلتَها لي، كل مرة حاولتَ فيها أن تُخبرني أنك متعب، أنك مرهق، وأنا كنتُ أواسيك بجملٍ مستهلكة.

- سيكون كل شيء بخير. أنت قوي، ستتجاوز هذا.

لكن لم يكن كل شيء بخير يا أمير، لم تكن قويًا كما ظننت، وكنتَ وحيدًا أكثر مما كنت أتصور.

أكثر ما يؤلمني الآن هو أنني لم أكن هناك، أنني لم أسمع صرختك الأخيرة، ولم أمدّ يدي لأنتشلك من الظلام الذي ابتلعك.

في الليالي التي تلت ذلك، كنتُ أفتح رسائلك القديمة، أقرأها بصوتٍ عالٍ وكأنني أستحضر طيفك. كنتُ أبحث في كلماتك عن أي إشارة، عن أي استغاثة فاتتني. كنتُ أتساءل:

- ماذا لو كنتُ أكثر انتباهًا؟ ماذا لو كنتُ أقرب؟ ماذا لو قلتُ لك أنني أحبك أكثر مما تخيلت؟

لكن ماذا تفيد هذه الأسئلة الآن؟ لقد رحلت يا أمير، رحلت وأخذت جزءًا من روحي معك.

الآن، عندما أفتح نافذتي وأرى المطر، لا أشعر بالدفء كما كنتُ أفعل وأنتَ بجانبي. كل قطرة مطر تذكرني بك، وكل لحظة صمت تشبه صمتك الأخير.

يا أمير، إن كان العالم قد أوجعك لدرجة دفعتك إلى الرحيل، فأنا آسفة لأنني كنتُ جزءًا منه، جزءًا لم يستطع أن يمدّ يده ليحملك.

اليوم الأوّل: مع أوّل ضوء

استفاقت عيناي على ضوء باهت يمر من بين الستائر الثقيلة، كأنه لم يرد أن يشرق في عالمي. كان الوقت متأخرًا جدًا، الساعة تشير إلى الثامنة، لكنني شعرت بأنني قد تأخرت عن كل شيء. تأخرت عن نفسي، عن حياتي. كل شيء حولي كان كما هو، ثابتًا في مكانه، وكأن الوقت لا يهمه. كانت الغرفة ساكنة، وأنا أيضًا كنت ساكنة. لم أعد أعرف كيف أتحرك، كيف أبدأ يومي، كيف أكون.

- هل أنتِ بخير؟

سألني صوت أمي من المطبخ، وهو يحاول اختراق الصمت الثقيل الذي كان يملأ المكان.

- نعم.

قلت ذلك بسرعة، لكن لم يكن هناك في صوتي أي إشارة إلى الحقيقة. لم أكن بخير، حتى أنني لم أكن أستطيع أن أفهم معنى أن تكون بخير. كانت كلماتي فارغة، محشوة بالوحدة.

- لماذا لا تأتين لتناول الإفطار؟

أضافت أمي، ولكن لم يكن هناك دافع واحد يدفعني للذهاب إلى المطبخ، لا شيء في هذا العالم يدعوني للحياة.

- أنا لست جائعة.

كانت هذه إجابتي، بدا الأمر كما لو أنني لا أستطيع أن أتكلم إلا بما هو ضروري للبقاء على قيد الحياة. كان الصوت الذي يخرج من فمي لا يعبر عني، بل عن شيء آخر، شيء ميت في داخلي.

لكنه لا يزال يتنفس بصمتٍ لا يُسمع، ليس جسدًا ولا فكرة، بل شعورٌ ثقيل يتشبث بحواف الذاكرة، كظلٍ لا يريد أن يختفي.

كان يومًا حيًا، ينبض بالحماس، يرقص على إيقاع الأمل، ويتوهج بلون الحياة. لكن مع الوقت، ومع كل خيبةٍ صغيرة، بدأ يخفت. لم يمت فجأة، بل تسلل الموت إليه بهدوء، قطرةً قطرة، كشمعةٍ انصهرت تحت وطأة الانتظار.

أحيانًا أحاول أن أتجاهله، أن أغمض عيني وكأنني لم أشعر بجسده البارد داخل صدري. لكنني أعلم أنه هناك، ينام في زاويةٍ مهجورة، يراقب بصمتٍ عتابي على نفسي.

ربما لم أكن شجاعًة بما يكفي لإنقاذه، أو ربما كنت حمقاء لأتركه يموت وحده. لكنه الآن مجرد ذكرى، شبح شعورٍ كان يومًا يملأني بالمعنى.

ورغم موته، أجدني أعود إليه بين الحين والآخر. أفتقده، أبحث عنه، أُصغي لصمته. وربما... فقط ربما، في يومٍ ما، سيعود ليبث الحياة في داخلي من جديد.

نادتني أمي مرة أخرى إلى الإفطار، صوتها الهادئ يحمل شيئًا أعمق من مجرد دعوة للطعام. كأنها تُمسك بي، تُعيدني من شرودي، وتُذكرني أن هناك شيئًا يستحق البقاء من أجله.

- تعالي يا ابنتي، الطعام سيبرد...

لكن صوتها كان دافئًا، كما لو أنه يحاول تدفئة تلك الزاوية الباردة في داخلي. آه يا أمي، أنتِ كل ما تبقى لي في هذا العالم الباهت.

أتذكر المرات التي كنتُ أتأخر فيها عن مائدتنا الصغيرة، وكيف كانت عيناكِ تملؤهما مسحة حزنٍ خفية، وكأنكِ تعرفين أن الزمن يسرق منا لحظاتنا واحدةً تلو الأخرى. والآن، كل لقمة على تلك المائدة ليست مجرد طعام؛ إنها محاولة منكِ لإبقائي حيّة، لإنقاذ ما تبقى من هذا القلب المنهك.

في كل مرة أنظر إلى يديكِ المتعبتين وأسمع صوتكِ الذي يغمرني بحنان العالم كله، أدرك أنني أعيش في ظل رحمتكِ. وكلما أردتُ الهرب من هذا العالم، أعود إليكِ. أعود لأجدكِ تنتظرينني، بعيونٍ مليئة بالحب وبقلبٍ يحتضن كل ما تكسره الحياة في داخلي. لكن يا أمي، هل أخبرتكِ كم أخاف من يومٍ لا أسمع فيه ندائكِ... كم أخشى أن أستيقظ على صمتٍ قاسٍ يلتهم صباحاتي... أن أجلس إلى مائدةٍ لا تحمل صوتكِ، ولا دفء حضوركِ...

آه يا أمي، أنتِ ما تبقى لي. في ندائكِ كل الحياة، وفي غيابكِ كل الفقد، فكيف لي أن أعيش يومًا دون أن تسمع روحي صوتكِ يناديني؟

لا زلت أعتقد أن الصباح فكرة مستوحاة من جبين امرأة جميلة، امرأة تحمل في ملامحها إشراقة يومٍ جديد، ودفء شمسٍ تلامس القلب قبل الأرض.

لكن حين أنظر إلى أمي، أدرك أن الصباح أعمق من ذلك؛ فهو صوتها حين توقظني بحنان، وهو خطواتها في البيت التي تُشعرني بالأمان، وهو عطر قهوتها الذي يسبقها إلى قلبي، فيمنحني يقينًا بأن هذا اليوم سيحمل خيرًا.

الصباح الحقيقي يبدأ من أمي، فهي أول شمسٍ عرفتها روحي،

وأجمل إشراقة لا تُغيبها الأيام. وجودكِ يشبه فصل الربيع بكل تفاصيله، وكأنكِ الحياة حين تتزين بأجمل ألوانها. الفراشات ترفرف بأجنحتها وكأنها تعزف أغنية ولادتي على أنغام دفء قلبك، النحل ينتقل بين الزهور بحب، كأن صبركِ يجسده في مشهد لا ينتهي من العطاء. الطيور تحلّق بخفة، ترسم لوحة من جمالكِ الذي يسكن السماء والأرض. الأشجار تتمايل، وكأنها تحتفي بظلّك الذي كان دائمًا ملجئي حين ضاقت عليّ الأيام. والماء الجاري الذي لا يتوقف عن العطاء، يشبه حديثك الذي يروي عطش روحي في كل مرة أحتاجكِ.

غيابكِ يجعل الليالي فارغة، باردة كأنها فقدت كل ما يدفئها.

الصمت يملأ الأركان حين لا يكون صوتكِ هنا ليمنح الحياة معنى، أكره الشتاء لأنه يذكرني ببرودة الفقد، وبرودة الحنين الذي يوجع أكثر من أي جرح. حتى النار تفقد قدرتها على الدفء، لأن دفء العالم كله كان دائمًا في قربكِ.

أنتِ أكثر من فصل، أكثر من حياة... أنتِ الفصول كلها حين تعانق بعضها لتخلق جمالاً لا يضاهى.

أنا يسرى، الفتاة التي تحمل في قلبها بحرًا من الأسرار، لكنها تخفيه وراء وجه جامد لا يظهر عليه سوى التعب. عشت حياتي في مدينة مزدحمة، لكنني كنت دائمًا أشعر بالعزلة، وكأنني جزيرة صغيرة وسط بحر من الناس. لم تكن لي عائلة كبيرة؛ فقدت والدي منذ سنوات، وأمي امرأة هادئة تقضي أيامها في صمت يشبه صمتي.

كنت يومًا فتاة مليئة بالأحلام. في طفولتي، كنت أرى الحياة بألوان زاهية، وأحلم بأن أصبح كاتبة تنسج من الكلمات عوالم تعبّر عن روحي. لكن مع مرور السنوات، ومع سلسلة من الخيبات التي بدأت برحيل والدي، ثم فشلي في دراستي الجامعية، تحولت أحلامي إلى رماد.

أعمل الآن في مكتبة صغيرة قريبة من منزلي، الكتب هي ملاذي الوحيد، المكان الذي أهرب إليه من صخب العالم، لكنها لم تعد تمنحني العزاء كما كانت تفعل سابقًا. كلما فتحت كتابًا، شعرت أن الحروف تتلاشى أمامي، وكأنها ترفض أن تكون وسيلتي للهروب.

أما حياتي الاجتماعية، فهي تكاد تكون معدومة. لدي عدد قليل من الأصدقاء، لكن علاقتي بهم أصبحت سطحية. أرفض الاجتماعات والزيارات، وأهرب إلى غرفتي كلما حاول أحد الاقتراب مني. أصدقائي، وإن كانوا يهتمون لأمري، يشعرون أنهم عاجزون عن الوصول إليّ. يظنون أنني قوية بما يكفي لتجاوز أزماتي، لكنني أعرف الحقيقة: لست قوية، أنا فقط بارعة في التظاهر بذلك.

كنتُ في طفولتي وحيدة، أتابع سرب الفتيات بفضول، كمن تقف خلف نافذة مغلقة، تراقب عالمًا لا ينتمي إليها.

أراهن يتشابهن في ما يفعلنه، كأنهن صفحة واحدة تُعيد كتابة نفسها مرارًا، وأنا بينهم ظِل لا يُرى. كانت ضحكاتهن تتردد في أذني كأغنية بعيدة، بينما قلبي يتهاوى لرؤية أيديهن المتشابكة، ومصائبهن البسيطة التي كانت تنتهي دومًا بضحكة أو دمعة عابرة.

غلب الصمت على صوتي في حضور الكلام، فقد كنتُ دائمًا أجد راحتي في صُحبة الصمت، أجلس إليه كما تجلس الطفلة لظل شجرة تهرب من شمس الظهيرة. تعلمت الإصغاء بإتقان، لكن كان يخيفني الإفصاح.

كنت أقرأ ما وراء الكلمات، وأسمع ما خلف الأصوات، وأشعر بما يُخبأ في زوايا الحكايات الفضفاضة. كأن انطوائيتي مَلكة مترفة، عَزلتني عن العالم لكنها زينتني بقدرة على رؤية الأعماق.

كانت كلماتي قليلة، تبدأ مترددة ثم تنطفئ قبل أن تكمل طريقها، مختبئة تحت غشاء هش، قابعة في زاوية اللامبالاة. طفولتي لم تترك لي سوى ضحكة ألقيها في الصباح كطقس يومي، وعفوية أرسلها مع نور القمر، ودفتر صغير أحمله بيدي أكتب فيه رسائل إلى نفسي.

رسائل مليئة بالكلمات التي لم أجرؤ على قولها، والأحلام التي لم أملك شجاعة الحلم بها، كأنني طفلة تتحدث إلى مرآة، تبحث عن انعكاس يشبهها ولا تجده.

اليوم الثاني: هل سيعود الفرح؟

اليوم، حاولت أن أتحرك، لكنني شعرت بأن جسدي كان ثقيلاً، غير قابل للتحرك. كل خطوة كانت كأنها تدفعني إلى الوراء، كل حركة كانت تجعلني أشعر بأنني أغرق أكثر في الظلام. خرجت إلى الشارع، لكنني شعرت بأنني لا أعيش فيه، كأنني فقط أتابع حياة الآخرين من بعيد، وكأنني لست جزءًا منها.

مررت بجانب بعض الأشخاص، ولكن كان هناك فجوة غير مرئية بيننا، فجوة تفصلني عن العالم. كان كل شيء يبدو غريبًا، وكأنني أعيش في حلم طويل لا أستطيع أن أستفيق منه. كل الوجوه كانت مبتسمة، لكن ابتساماتهم كانت تبدو كأنها لا تعني شيئًا. كانت وجوههم غريبة، حتى أنني لم أعد أتذكر كيف أكون جزءًا من هذا العالم.

- هل أنتِ بخير؟

سألتني شابة، بينما كنت أمشي على الرصيف.

- نعم، أنا بخير.

كان ردي بلا تفكير، ولكنني كنت أكذب. لم أكن بخير، ولم أكن أريد أن أخبر أحدًا.

- هل أنتِ متأكدة؟ تبدين حزينة!

أضافت، وكأن كلماتهم لا تهمني ولا تغير أي شيء.

- أنا لست حزينة، أنا فقط... لا أشعر بشيء.

كان الصوت الذي خرج مني هادئًا، خاليًا من العاطفة، كما لو أنني كنت أقول تلك الكلمات لشخص آخر، لا لي.

ثم ابتعدت عنهم، وكأنني لا أريد لأحد أن يرى فراغي الداخلي. لكنني كنت أعيش في دائرة مغلقة، وكان صوت داخلي يقول لي: «أنتِ لستِ بخير، لكنكِ لا تجرؤين على قول الحقيقة».

أجبته: أتعرف معنى أن يكون الإنسان هاربًا من حزنه؟

ليس الحزن الذي يأتي كغيمة عابرة، بل ذلك الذي يلتصق بالقلب، يثبت فيه كأنَّه جزءٌ منه، لا يمكن فصله. هو الحزن الذي يغرقك في صمتٍ لا يصدقه الآخرون، لأنك لا تستطيع أن تترجمه بالكلمات. لا تستطيع أن تروي للآخرين كيف أن كل لحظة تمر عليك كأنها عاصفة، تعصف بكل شيء فيك، وتتركك مع بقايا روحك المشتتة.

ثم هناك المجتمع، هذا العالم الذي يفترض أن يكون فيه الإنسان جزءًا من الكل، لكنه لا يشعر به إلا كغريب بين جدران بيته. كل ما تفعله هو الهروب، الهروب من النظرات التي تحمل فيها أحكامًا، ومن الكلمات التي تحمل في طياتها ملامة لا تطاق. تصبح غريبًا عن كل شيء: عن أصدقائك، عن معارفك، وعن أهلك الذين يقيسونك بمعايير لا تعرف كيف تلبيها.

وأنت، لست هاربًا فقط من الآخرين، بل من نفسك أيضًا. من أفكارك، من ضميرك، من كل تلك الأحاسيس التي تتصارع داخلك ولا تجد لها مخرجًا. تبحث عن شيء يسكّن هذه الفوضى

الداخلية، ولكنك لا تجد إلا المزيد من الضياع. أنت هاربٌ حتى من نفسك، لأنك لا تعرف من تكون بعد أن ضاعت منك معالمك في خضم الألم والضغوط. وفي النهاية، تدرك أن الهروب لم يكن حلاً، وأنك، رغم محاولاتك الكثيرة، لن تفر من الحزن أو من نفسك، لأنك تحمل كل شيء في قلبك أينما ذهبت.

في زيارتي الأخيرة إلى طبيبي النفسي، وجدتني أتحدث عنك يا أمير، وكأن الحديث عنك هو العلاج الوحيد الذي أحتاجه. كنتُ أراقبه وهو يشرح لي كيف تتراكم اللحظات في الذاكرة، وكيف تنزوي ببطئ في زوايا بعيدة، إلى أن تختفي تمامًا. شعرتُ حينها بخوفٍ حقيقي، هل يمكن أن يأتي يومٌ لا أجدك فيه في ذاكرتي؟ هل يمكن أن تصبح مجرد صورة باهتة أو اسمٍ يمضي في حديث عابر؟

أخبرته أنني أخشى نسيانك أكثر مما أخشى أي شيء آخر في هذا العالم، شرحت له كيف أن ذكرياتنا، حتى المؤلمة منها، هي الشيء الوحيد الذي يثبت لي أنني ما زلت على قيد الحياة. حكيتُ عن لقائنا الأول، عن المطر الذي انسدل بغزارة على جبهتك وحاجبيك، وكيف بدوت حينها كأنك جزء من ذلك المشهد، خُلق خصيصًا ليُحفر في ذاكرتي إلى الأبد.

اعترفتُ له بصعوبة التجاوز، كيف أن كل محاولاتي للابتعاد عن طيفك كانت تنتهي بالعودة إلى نقطة البداية. جعلته يقرأ كل الكلمات التي كتبتها عنك، حاول أن يُشجعني، قال لي بابتسامة خفيفة إنني أصبحت بارعة في فهم الغياب، في تفسيره، وفي الكتابة عنه.

في نهاية الجلسة، ابتسم الطبيب وربت على يدي وهو يناولني علبة دواء وقال: «لا تخافي، كل ألم يحمل في طياته نهاية. ستتجاوزين هذا الأمر، مهما بدا صعبًا الآن. ستشرقين من جديد، وستنسين ما كان يؤلمك يومًا. تذكري دائمًا أن قوتك أكبر من أي وجع، وأن الأيام تحمل معها شفاء القلوب».

اليوم، بعد شهر وددتُ لو أستطيع الاتصال به. أردتُ أن أخبره أن كلماته لم تتحقق، وأنك لم تأتِ، ولم أضحك منذ غادرت. أردتُ أن أقول له إن دواءه لم يساعدني على النسيان، وإنني، رغم كل شيء، لم أتعلم أن أكون بارعة في تجاوز غيابك. غيابك يا أمير، كان وما زال عصيًّا على التفسير، عصيًّا على التعايش.

أردتُ أن أخبره أنك لم تختفِ في زوايا ذاكرتي كما توقعت. لا، أنت لم تصبح ذكرى باهتة، ولا قصة من الماضي. أنت يا أمير، كنت وما زلت ذاكرتي بأكملها.

اليوم الثالث: غروب بلا شروق

في المساء، جلست في غرفتي، أراقب السقف وأنا أفكر في كل شيء. كانت أمي قد خرجت، وحصلت على بعض الوقت للانعزال. نظرت إلى الساعة، فشعرت وكأن الوقت نفسه كان يهرب مني، وكأنني كنت أعيش في لحظات لا تنتهي. لم أعد أشعر بالألم نفسه كما كنت أشعر به من قبل. لقد أصبح الألم جزءًا مني، أصبح شيئًا حيًا بداخلي، لا يمكن التخلص منه.

- لماذا لا أستطيع أن أستمر؟

قلت لنفسي بصوت خافت.

- لأنكِ لا تملكين القوة لذلك.

جاء صوت داخلي عميق، غريب، لكنه يجيبني دائمًا.

- لكنني كنت أعيش، أليس كذلك؟

همست، ولكن كانت الكلمات تخرج مني وكأنها لا تتعلق بي.

- كنتِ تعيشين، نعم، لكنك الآن فقط تموتين في صمت.

أجاب الصوت الداخلي، وكأن الحقيقة صارت أوضح الآن، شعرت بأنني غارقة في هذا الفراغ الذي يزداد اتساعًا.

- ماذا لو حاولت؟

تساءلت، ثم تذكرت كلمات منال التي قالتها لي منذ أيام: «لا تسمحلي لنفسك بالسقوط في هذا الفراغ، أرجوك».

لكن هل كانت تعرف؟ هل كانت تعرف حقًا كيف يشعر الإنسان عندما يصبح فارغًا؟ كيف ينهار داخله بصمت دون أن يُحدث ضجيجًا؟ هل شعرت يومًا بذلك الثقب الذي يتسلل إلى الروح، يمتص منها كل شيء، حتى تصبح مجرد قشرة خاوية؟ يستيقظ كل صباح بنفس الروتين، بنفس الخطوات الثقيلة. يفتح عينيه، لكن العالم أمامه يبدو باهتًا، كأنه مشهد مكرر من فيلم قديم فقد ألوانه. كل شيء حوله يتحرك، لكنه وحده عالق، مجمّد في مكانه، كأنه تمثال يراقب الحياة دون أن يلمسها.

هل كانت تعرف كيف يتحول الحزن مع الوقت إلى صمت؟ كيف تتوقف الدموع، ليس لأن الألم انتهى، بل لأن الروح جفّت ولم تعد تملك حتى رفاهية الانهيار؟ كيف يتحول القلب إلى فراغ يصعب أن يُشرح، فراغ يبتلع كل ما كان يومًا نابضًا بالحياة؟ لم يكن يكره شيئًا بقدر تلك الكلمات التي تُقال بمحاولة تعزية: «كل شيء سيمر»، كأنهم لا يدركون أن هناك أشياء لا تمر، بل تستقر في الأعماق، وتبني جدرانًا سميكة تحبس خلفها كل شعور.

كان يتساءل: لو أنها فقط نظرت في عينيه لثانية أطول، هل كانت ستفهم؟ لو أنها شعرت بالبرودة التي تنبعث منه، هل كانت ستدرك أن الفراغ بداخله أكبر من أن يُملأ بكلمات أو وعودٍ خفيفة؟

الفراغ ليس غياب المشاعر فقط، إنه غياب الذات، غياب القدرة على أن تشعر بأنك حي. هو ذلك الصمت المدوي الذي يسكن صدرك، تلك الوحدة التي لا تهزمها الجموع، وتلك الغصة التي تعجز حتى عن التعبير عنها.

هل كانت تعرف؟ ربما لم تعرف، وربما لم تحاول. لأنه من الأسهل أن تتجاهل الفجوة العميقة التي تتسع كل يوم، من أن تواجه حقيقة أن الإنسان الذي أمامك قد صار مجرد ظلٍّ لما كان عليه.

اليوم الرابع: انطفأت شموع الأمل..

اليوم، كان كل شيء هادئًا جدًا، كما لو أنني غارقة في بحر من الصمت. لا شيء يهم، ولا شيء يمكن أن يغير شيئًا. كان الوقت يمر ببطء شديد، وكل لحظة كانت مليئة بالفراغ. تناولت الطعام، ولكنني لم أشعر به. كانت يديّ تتلمس الأشياء، لكنها لا تدرك وجودها. كانت أفكاري تتسابق في عقلي، وكأنها لا تتوقف، تتنقل بين الذكريات والهواجس والمخاوف، دون أن تجد مخرجًا.

- لماذا لا تتحدثين معي؟

قال صوت أمي من المطبخ، وهو يسحبني من أفكاري.

- ليس لدي ما أقوله.

أجبتها، ثم أغلقت الباب بهدوء.

- هل أنتِ غاضبة مني؟

قالت بصوت حزين، وكأنها قد أدركت أنني أبتعد أكثر.

- لا، أنا فقط لا أستطيع أن أشرح لكِ.

كانت الكلمات تخرج مني كأنها ثقيلة، شعرت بأنني غارقة في شيء أكبر من أن أتمكن من تحمله.

- ماذا حدث لكِ؟ لماذا تغيرتِ هكذا؟

قالت أمي، وأردت أن أجيبها، لكنني لم أستطع. كيف يمكنني أن أخبرها أنني فقدت نفسي؟ كيف أخبرها أنني أصبح مجرد خيال في عالم لا أستطيع أن أكون فيه؟ كيف أخبرها أنني

لم أعد أنا؟ أنني لم أعد تلك الفتاة التي كانت تملأ المكان بالضحكات، والتي كانت تحمل في عينيها أحلامًا لا تنتهي؟ أنني أصبحت مجرد خيالٍ باهتٍ لفتاةٍ كانت يومًا حاضرة، مليئة بالحياة، لكنها الآن تتجول في عالمٍ لا تستطيع أن تكون فيه.

كلما نظرتُ في عينيها، شعرتُ بصدعٍ عميقٍ يتسع في داخلي. تنتظر مني كلماتٍ تبرر صمتي، أو ربما ابتسامة تطمئنها أنني بخير. لكن كيف أشرح لها أنني لم أعد أشعر بأي شيء؟ أن الحياة أصبحت بالنسبة لي مشهدًا غريبًا أراقبه من بعيد، دون أن أجد مكانًا لي فيه؟ أريد أن أقول لها إنني أحاول، والله إنني أحاول، لكن كل خطوة أقوم بها تشعرني أنني أثقل، أعمق في ظلي الذي لم أعد أراه. كيف يمكنني أن أشرح لها هذا الثقل؟ أن أخبرها عن الأيام التي أستيقظ فيها فقط لأنتظر أن تنتهي؟ عن الليالي التي أبتسم فيها رغم أنني من الداخل منكسرة؟ أن أصف لها هذا العالم الذي فقد ألوانه، وقلبي الذي فقد صوته؟

أحيانًا أرى في عينيها خوفًا خفيًا، وكأنها تشعر أنني لست هنا بالكامل. لكنها لا تسأل. ربما لأنها لا تريد أن تعرف الإجابة، أو ربما لأنها، مثل الجميع، لا تعرف كيف تواجه حقيقة أنني أصبحت شخصًا لا يستطيع العودة إلى ما كان عليه.

كنت فتاةً تحلم بالمستحيل، الآن بالكاد أعيش الممكن. أتظاهر بأنني بخير، أخبرها أن كل شيء على ما يرام، لكنها لا تعلم أنني عندما أكون وحدي، أرى نفسي كشبح يتجول بلا روح، بلا اتجاه.

أريد أن أخبرها أنني أحبها، لكنها لن تفهم أن حبي لا يكفي ليعيدني. أريد أن أصرخ لها بأنني أقدر محاولاتها، لكن حتى دفئ كلماتها لا يصل إلى ذلك المكان المظلم في داخلي.

أنا الآن خيال، صورة باهتة لفتاة كانت تنبض بالحياة، لكن كل شيء تلاشى. في عالمٍ لا أستطيع أن أكون فيه، أحاول البقاء فقط من أجلها. ولكن إلى متى؟ لا أعرف.

وكانت غايتي أن أقف أمام نفسي في المرآة بلا ندم وأسف وأوجاع، مجرد وجه لا يحمل إلا ملامحه لا ملامح الزمان ونكباته!

الأم: (بصوت مكسور، يكاد يخنقه البكاء):

- يا ابنتي، إلى متى ستبقين سجينة لهذا الألم؟ الليل يطول في عينيّ وأنا أفكر فيكِ، أشعر وكأنني أمسك بالرّمال تتسرب من بين أصابعي.

يسرى: (بهمس كأنها تتحدث لنفسها):

- وما الفرق، يا أمي؟ الليل أو النهار، كلاهما فراغ! كل شيء مات يوم رحل.

الأم: (تقترب منها أكثر، تضع يدها المرتعشة على كتفها):

- لكنني هنا، يا صغيرتي. أما زلتِ ترينني؟ أما زلتِ تشعرين بي؟ أم أنني أصبحت مجرد ظل في عالمك المظلم؟

يسرى: (بصوت ينكسر في منتصف الكلمات).

- آه يا أمي، كيف أراكِ وأنا لا أرى حتى نفسي؟ كل شيء داخلي فارغ، قلبي... روحي... كلها رحلت معه.

الأم: (بدموع حبيسة، تضغط على يد ابنتها بقوة وكأنها تخشى أن تفقدها أيضًا) :

- ولكنني فقدت والدكِ أيضًا! لا تظني أنني لم أشعر بهذا الثقب الأسود الذي يبتلعنا، يا يسرى. كنت أصحو ليلاً أبحث عن أنفاسه بجانبي، أضع يدي على السرير البارد وأبكي كطفلة صغيرة.

يسرى: (تغطي وجهها بيديها، تنهار في بكاء مكتوم):
- لكنكِ أقوى مني، يا أمي... أنا أضعف. كنت أعتمد عليه في كل شيء، حتى في أن أتنفس. الآن الهواء ثقيل، وكل لحظة تمرّ وكأنها عذاب جديد.

الأم: (تبكي بصمت، لكن صوتها يخرج حادًا مليئًا بالألم):
- لا تقولي هذا، أنتِ ليست ضعيفة، لكنكِ ضائعة. وأنا هنا لأحملكِ، لأعيدكِ إليّ. لكنني خائفة... خائفة أن أفتح عيني في يوم ما ولا أجدكِ.

يسرى: (ترفع رأسها وتنظر إلى أمها بعينين غارقتين في الدموع):
- أمي، كل ما أريده هو أن أختفي، أن أنام ولا أصحو أبدًا. أريد أن أنظمّ إليه، حيث لا ألم ولا ذكريات.

الأم: (تصرخ من عمق قلبها، تمسك بوجه ابنتها بين يديها):
- كلا ! هذا ليس حلاً! إذا فعلتِ ذلك، من سيبقى لي؟ من سيمسك بيدي عندما لا أستطيع الوقوف؟ أنا خسرت نصفي مرة، ولن أحتمل أن أفقدكِ أنتِ أيضًا. أنتِ ابنتي، أنتِ ما تبقى لي من الحياة.

يسرى: (بصوت مختنق بالدموع):

- لكنني تعبت، يا أمي... أشعر أنني في بحر مظلم، أغرق كل يوم أكثر، ولا أرى طريقًا للخروج.

الأم: (بصوت ضعيف، مكسور لكنه حنون):

- وأنا سأكون القارب، يا صغيرتي. سأحملكِ، حتى لو كنتُ أنا نفسي غارقة. لا أطلب منكِ أن تنسيه، لكن أرجوكِ تذكري أن الحياة لم تأخذ كل شيء. أنا هنا، ألم يكفِكِ وجودي؟

يسرى: (تنهار في حضن والدتها، تبكي كأن قلبها ينزف):

- أمي... أنا خائفة.

الأم: (تحتضنها بكل ما أوتيت من قوة، وهي تبكي بصمت):

- وأنا خائفة أيضًا، لكننا سنتجاوز هذا معًا. لا أعدكِ أن الألم سيزول، لكنه سيصبح احتمالًا. فقط لا تتركيني، يا يسرى، لا تدعي الحزن يأخذكِ مني.

يسرى: (تغمض عينيها وهي تغرق في حضن أمها):

- سأحاول، يا أمي... من أجلكِ، سأحاول.

الدموع تتساقط من عيني الأم وابنتها كأنهما تسقيان ألمًا قديمًا لا يموت، بينما المطر بالخارج يستمر في الانهمار، يعكس حزنهما كما لو أن السماء تبكي.

اليوم الخامس: رحلة إلى الماضي

كنتُ أستغرب عندما كانت أبي يأخذني معه لزيارة قبر جدي. لم أرافقه سوى مرة أو مرتين، كنتُ أسأل نفسي: لماذا يتكرر هذا الفعل؟ ما الذي يجده في تلك الأحجار الباردة، والصمت الذي يحيط بكل شيء؟ لكن بعد رحيله، أصبح كل شيء مختلفًا. أصبح دخول المقبرة وزيارة قبر أبي أمرًا عاديًا جدًا. يشبه مرورًا في شارع مألوف، مليء بالذكريات، كأنني أعود إلى مكان أفتقده كثيرًا. أحيانًا أشعر وكأنني سأتوقف هناك لأتحدث معه، كأنني في أي وقت سأجده قريبًا، كما لو أنه لن يرحل أبدًا. كنت ألتقي به كما لو أنه ما زال هنا، يبتسم لي ويقول لي: «أهلاً يا فتاتي».

أحيانًا، وأنا في الطريق إلى مكان ما، أقود سيارتي مسرعة وأتخيل أنني سأراه هناك، يسير بجانب صديقه كما كان يفعل دائمًا. أتخيل أننا سنلتقي صدفة في أحد الشوارع القديمة، وأوقف السيارة وأقول له: أهلاً أبي، أين كنت؟ لكنه لا يكون هناك. كل شيء يصبح خيالاً فقط، مجرد صورة في رأسي.

في أحد الأيام، دخلت المقهى المفضل له، وطلبت مشروبه المعتاد. نظر إليّ المدير وقال لي مبتسمًا:

- أبوك كان هنا منذ قليل.

ضحكت وأجبته:

- عصير ليمون، كما كان يفعل أبي.

كان دائمًا يتردد في اختياره، ثم يعود إلى ما يعرفه جيدًا. كنت أستغرب هذه العادة منه، لكن الآن أصبح هذا اختياري أيضًا، وأجد نفسي أطلب نفس العصير، وكأنني أسير على خطاه.

لكن اليوم، عندما دخلت المقهى، لم يخبرني المدير عن زيارة أبي، ولم أسمع صوته في المكان، لم يقل لي أحد: أبوك كان هنا. أصبح الصمت يملأ الفراغ، وأصبح الوجع أكبر، لأن أبي لم يعد هنا.

اليوم، قررت أن أذهب إلى المقبرة. لا أعرف لماذا، لكن شعرت بحاجة غريبة لذلك. ربما كان ذلك هروبًا، ربما كانت محاولة للعودة إلى مكان ما في ذاكرتي، إلى وقت كنت أشعر فيه بشيء من الأمان. كان المكان هادئًا جدًا، كان الهواء باردًا، وكانت السماء مليئة بالغيوم الرمادية التي كانت تكاد تلامس الأرض. جلست بالقرب من قبر والدي وقبره، وهمست لهما: «هل كان يجب أن تكونوا هنا الآن؟ هل كان يجب عليّ أن أكون هنا وحدي؟

سنوات مرت منذ رحيله، لكنها لم تمر بي. كل يوم يحمل نفس الثقل، نفس الفراغ، نفس الغصة التي لا تنتهي. وكأن الفقد ليس لحظة تُدفن فيها الأجساد، بل حفرة لا نهاية لها تتسع في صدري.

أبي... لم يغادرك الوقت كما غادرتك أنا. ما زالت ذكراك عالقة في كل تفصيل صغير: في رائحة الأيام القديمة، في صوت الريح حين تمر، في كل زاوية كنت فيها لي وطنًا. قسمًا بربي، وكأنك ستُدفن غدًا.

كأن المشهد يعيد نفسه كل صباح، وأنا أقف هناك، عاجزة، أحمل روحي المكسورة بين يديّ، أتوسل للغياب ألا يبتلعك أكثر، لكنه يبتلعني أنا.

اللهم اربط على قلبي الذي ما عاد يعرف معنى الثبات، واغفر له، وامنحه من رحمتك ما عجزت أنا عن منحه من حبي. فأنا لا أزال هنا، عالقة بين شوقي الذي ينهشني، وذكراك التي تأبى أن تصبح ماضيًا.

أشتهي حضنك يا أبي، لكنك بعيد عني، أبعد مما يمكن أن تتصوره الكلمات. كان حضنك هو ملاذي، الحصن الذي يلملم جروحي، وتختفي فيه كل آلامي. كنتَ أنتَ العالم بأسره، وعندما كنت في ذراعيك، شعرت أنني لا أحتاج شيئًا آخر، لا حزنًا، ولا خوفًا، ولا حتى الوقت ذاته. لكن الآن، كل شيء تغير، وكل شيء أصبح يفتقدك. كلما غابت عينيّ عن النوم، كنت أبحث عنك في الظلام، عسى أن ألتقي بك، أن أشعر بك، أن أعود إلى تلك الأيام التي كنت فيها لي كل الأمان.

أشتهي حضنك يا أبي، أشتاق لتلك اللحظة التي كنت فيها تُرَاوِحُ بين همساتك وصمتك، كما لو أن الزمن كان يقف احترامًا لوجودك. لكن لا شيء الآن سوى الفراغ... فراغ يأخذ كل شيء في داخلي، يبتلعني دون أن يترك لي أي جزء أتمسك به.

كلما حاولت أن أغمض عينيّ، أجد نفسي أغرق في الألم، في الذاكرة التي لا تنتهي، في تلك اللحظات التي كنتَ فيها قريبًا مني، ثم غبت، وغاب كل شيء معك.

يا أبي، لم تكن لديَّ أي فكرة عن أن الحياة ستكون بهذا الشكل القاسي من دونك، وكأن الدنيا أخذت منك ثم تركتني هنا، أحتضن وحدتي وحزني في كل لحظة. أحتاجك الآن أكثر من أي وقت مضى، لكنني أسمع صدى صوتك في الذاكرة، ولا أستطيع الوصول إليه، وكأنك مجرد حلم بعيد. أشتهي حضنك يا أبي... وكلما اشتقت إليك، أجدني أضيع أكثر في هذا العالم الذي أصبح لا طعم له ولا لون، بعد أن رحلتَ. أفتقد دفء الصباح الذي كنتَ تصنعه لي بحضورك، أشتاق إلى حرارة الشمس حين كانت تشرق على صوتك، إلى ذلك الأمان الذي كان يحتضنني حين أنظر إليك.

منذ غيابك عني، وأنا أعيش في فراغٍ قاتل لا يملؤه شيء. قهوتي الصباحية فقدت طعمها، والشمس أصبحت باردة، وكأنها تفتقد دفء نظراتك التي كانت تملؤني بالحياة. منذ رحيلك، يا أبي، لم أعد أنا كما كنت. أصبحتُ أسير بين الأيام بلا هدف، أبحث عنك في كل مكان ولا أجد سوى ذكرياتك. الشمس لم تعد شمسًا، والصباح لم يعد صباحًا. حتى أنني أشعلت أضواء الليل في وضح النهار، لكن النور لم يلمس قلبي.

كل الغيابات قاسية، لكنها لا تُضاهي وحشة غيابك. كل المكالمات وكل الرسائل التي أرسلها إلى السماء لا تصلني منك إجابة، ولا تُطفئ هذا الحنين الذي يكبر في صدري كل يوم.

لا أخفيك، يا أبي، أن النوم أصبح خصمًا لي. للَّيلة الثالثة على التوالي، أُحادث وسادتي عنك، أرجو أن تحملني الأحلام إلى وجهك، لكن حتى أحلامي أصبحت خاوية.

عد يا أبي، ولو حتى لحظة، فأنا ما زلت تلك الطفلة التي تركتها خلفك. طفلة لم تكبر أبدًا منذ أن رحلت، ولم تعرف كيف تعيش في عالم خالٍ من دفء يديك.

شعرت بشيء من العزلة القاتلة، كما لو أنني لا أستطيع أن أهرب من هذا الحزن الذي يسكنني.

- أنا هنا، هل تراني؟

همست للقبر، ثم شعرت بيد على كتفي. كانت امرأة مسنّة، تنظر إليّ بنظرة مليئة بالحكمة والحنو.

- الذكريات قد تؤذيك، لكنك لا تستطيعين الهروب منها.

قالت لي بصوت منخفض.

- أعرف ذلك.

أجبتها.

شعرت كما لو أنني أسمع كلامها، لكنني لم أستطع أن أؤمن به. كان الصوت الذي خرج مني ضعيفًا، وكان داخلي يقول لي: «أنتِ هاربة، لكن لا مكان للهروب».

لماذا تهربين؟

سؤال بسيط، لكنه أثقل من الجبل. أبحث عن إجابة، لكنني لا أجد سوى الصمت. كيف أشرح أن الهروب ليس خيارًا، بل غريزة؟ أنني لا أركض لأنني أريد، بل لأنني لا أستطيع الوقوف؟

أهرب لأن البقاء يشبه الموت البطيء، لأن الوقوف أمام كل هذا الحزن، كل هذا الثقل، يجعلني أختنق. كل شيء حولي يطاردني، حتى الذكريات التي كان يفترض أن تمنحني السكينة تحولت إلى شبح يطاردني في كل زاوية. أهرب لأن المواجهة تعني أن أغرق، وأنا بالكاد أطفو. لكن، إلى أين أهرب؟ الأماكن كلها متشابهة، مغطاة بنفس الرماد الذي أحمله في داخلي. لا فرق بين غرفةٍ مظلمة وبين شارع طويل يمتد بلا نهاية. لا فرق بين مدينتي وكل مدن العالم. المشكلة ليست في المكان، المشكلة هنا، في قلبي، في رأسي، في كل جزءٍ مني.

لماذا تهربين؟ لأنني لا أستطيع البقاء. لأن الوقوف أمام وجهي في المرآة يجعلني أكره ما أراه. لأن الأصوات التي في داخلي أعلى من أي شيءٍ آخر، والصمت الذي أبحث عنه يهرب مني كلما اقتربت منه. لكن الهروب ليس خلاصًا، أعرف هذا. كل خطوة أبتعد بها عن ما يؤلمني، تأخذني إلى ألمٍ جديد. الأماكن التي ألجأ إليها لا تحمل الأمان، بل تحملني أنا، بحزني، بخوفي، بكل ما أحاول تركه وراء ظهري. أهرب، لكنني أحمل ألمي معي، كحقيبةٍ ثقيلة مربوطة بروحي. أهرب لأنني لا أملك شجاعة المواجهة، المواجهة تعني أن أفتح كل الأبواب المغلقة، أن أعود

إلى كل اللحظات التي آلمتني، أن أواجه كل الكلمات التي لم تُقل، وكل الوجوه التي أغلقت عيني عنها. المواجهة تعني أن أغوص في أعماقي المظلمة، وأنا أخاف الغرق.

هل يفهم أحد ذلك؟ الهروب ليس راحة. الهروب هو ركضٌ لا ينتهي، تعبٌ دائم، خوفٌ من أن يتوقف المرء ولو للحظة فيجد كل شيء يلحق به.

لماذا تهربين؟ لأنني خائفة، لأنني ضعيفة، لأنني لا أعرف كيف أعيش مع كل هذا الثقل الذي أحمله، لأنني لا أملك إجابة أخرى. ومع ذلك، أعرف أن الهروب ليس حلاً. أعرف أنني أدور في دائرة مغلقة، أعود فيها دائمًا إلى نفس النقطة. أعرف أنني مهما ركضت، لن أستطيع الهروب من نفسي. لكنني، رغم ذلك كله، أستمر. لأن الهروب، ولو كان بلا جدوى، يبدو أسهل من المواجهة.

اليوم السادس:

اليوم، لم أستطع أن أهرب من نفسي. كنت في غرفتي، محاطة بالذكريات التي تلاحقني في كل زاوية. قررت أن أفتح إحدى الصناديق القديمة، ولكن عندما نظرت إلى الصور القديمة، شعرت أنني لا أعرف من أكون. كنت أنظر إليهم جميعًا، إلى العيون المليئة بالحياة، ولكنّي لم أستطع أن أرى نفسي فيهم بعد الآن. كيف كنت أبدو في تلك الصور؟ هل كنت تلك الفتاة التي تنبض بالحياة، أم أنني كنت أعيش في خيالهم فقط؟

سرحت بخيالي قليلا وتذكرت حلما راودني ليلة الأمس، يعبرُ صدى قطار صغير، يأتي من مكانٍ بعيد، ربما من الماضي، أو من عالمٍ آخر. لا أعرف. في كل مرة يمرّ، يبدو أن مؤخرة القطار لا تنتهي أبدًا، كأن الزمن نفسه قد توقف عند تلك النقطة، وأنا أظل هنا، وحيدة، أراقب، وأنتظر شيئًا ما... ربما شيء ضاع مني منذ وقت طويل، شيء لا أستطيع الإمساك به.

كل نافذة في القطار تعكس صورة، صورة أراك فيها أنت، تلوحين لي بالوداع، في صمت قاتل. وفي عينيك، أرى كل شيء ضاع مني. أرى الحزن الذي لا يُقال، والذي يثقل قلبي كلما مررت من تلك اللحظة. كان شعرك يتطاير مع الرياح، وكأن السماء نفسها كانت تبكي على فقدك. كلما اقتربت منك في الحلم، كنت تبتعدين أكثر، وكأنك كنتِ تخفين عني شيئًا، شيئًا لا أستطيع فهمه، أو ربما كنتِ تخفين عني نفسي.

أشعر أنني تائهة، غارقة في ضباب لا ينتهي، أسير على طريق طويل، مملوء بالألم، محاط بالفراغ. كلما نظرت حولي، لم أجد أحدًا. لا شيء سوى الظلال التي تتراقص حولي، كأنها تسخر مني. كنتِ دائمًا تبتسمين لي، لكن تلك الابتسامة كانت غريبة، باردة، كأنها وداع آخر. كنت أصرخ في الحلم، لكن صوتي لم يكن يُسمع. وكان كل شيء يبتعد عني، بما في ذلك أنت.

يا إلهي، كم هو قاسٍ هذا الحلم! وكلما صحوت، شعرت أنني كنتُ أركض وراءك في كل مكان، في كل مكان إلا في الواقع. في كل مكان إلا هنا، وحدي. وحدي في هذا العالم الذي لا أجد فيه سبيلاً للخروج من هذا الألم. وحدي، رغم كل الوجوه من حولي، وحدي مع ذكرياتي التي لا تُمحى. لكن لا أحد يعرف، لا أحد يشعر بما أشعر به. الجميع يظن أنني بخير، أنني ما زلت أعيش في عالمهم. لكنني هنا، في هذا الفراغ، في هذا الحزن الذي يسكنني ويطاردني في كل لحظة. في كل مرة أغمض فيها عيني، أجدكِ هناك في كل نافذة، تلوحين لي بالوداع.

- ماذا حدث لي؟ همست وأنا أغلق الصندوق.

- أنتِ أضعتِ نفسك.

أجبته:

- قطار الحياة لا يمرّ بجانبنا ليأخذنا برفق، ولا ينتظرنا على الأرصفة حين نتأخر، إنه يمضي بسرعة لا تكترث لضعفنا، وحين نقترب منه متعثّرين بأحلامنا، يأتي بلا رحمة... يدعسنا.

تتطاير منا بقايا الأمل كأوراق مهملة، وتلتف حولنا عجلاته الثقيلة، تدهس ما تبقى من قلوبنا المنهكة، وكأننا لم نكن سوى ظلال عابرة في طريقه. ليس للحياة قلب ينبض، ولا للزمن أيدٍ تمتد لتنتشلنا، كل ما نملكه هو صمتنا أمام قسوته، وذكرياتنا التي تتلاشى مع كل صفارة رحيل. هذا الليل يبدو يافعًا، كأنه في أولى سنواته، يتنفس العتمة كما يتنفس الورد ندى الصباح، يملأ الهواء بصمتٍ ثقيل، وكأنه مبشّرٌ بولادة أوجاع جديدة. لا نجم يُضيء، ولا قمر يتسلل بعزاءٍ واهن. كل شيء غارق في سوادٍ يمتد إلى أعماقي، كما لو أن الليل قرر أن يعقد صداقة أبدية مع روحي.

العتمة ليست في السماء فقط، إنها في صدري، في زوايا عقلي، في الأماكن التي ظننت أنها آمنة، تغرس نفسها بهدوء، كأنها تقول: «لن أذهب حتى تنكسر تمامًا». هذا الليل لا يعدني بالنوم، لا يعدني بالهدوء، هو فقط يهمس لي:

سأبقى هنا، أطيل ساعاتي، حتى تفقدي إحساسك بالزمن، وحتى يصبح الحزن رفيقك الوحيد.

يا لهذا الليل الشاب، كم يبدو قويًا! وأنا... كم أبدو منهكة!

ما هذا الليل الذي لا ينتهي؟ جسدي مرهق، عيناي تغلقان من التعب، لكنّ رأسي... رأسي يأبى الصمت.

صوت داخلي:

- لأن الليل لم يكن يومًا للنوم، بل هو مرآة، يعكس كل ما هربتِ منه في وضح النهار.

- هل أهرب؟ أنا لا أهرب، أنا فقط أريد لحظة هدوء، أن أغرق في النسيان ولو قليلاً.

الصوت:

- الهروب لا يشترط الحركة، أحيانًا يكفي أن تغلقي عينيكِ لتظني أنكِ هربتِ، لكن عقلكِ... عقلكِ يفتح أبوابه لكل شيء طاردتِه.

- لكن لماذا الآن؟ لماذا في الظلام، حيث كل شيء يبدو أثقل، وأقرب، وأكثر حدة؟

الصوت:

- لأن الحزن يحب الليل، إنه موطنه. يجلس فيه كملك متوج، يفتح أدراجه المظلمة في عقلك، ويخرج منها كل ما دفنتِه بيدين مرتجفتين. لكنه يأخذني بعيدًا، إلى أماكن لا أريد زيارتها، إلى وجوهٍ أريد نسيانها، إلى ألمٍ ظننته زال.

الصوت:

- هذا هو الأرق؛ أن ينام جسدكِ في مكان، بينما يسافر عقلكِ إلى أماكن أخرى، تلك التي لا مفر منه حيث الحزن هو البوصلة، والذكريات هي الطريق.

- وهل هناك مخرج؟ هل يمكنني الهروب من هذا السجن؟

الصوت:

- المخرج ليس هروبًا، بل مواجهة. لكن أخبريني، هل لديكِ ما يكفي من الشجاعة لتحدقي في حزنكِ مباشرة؟ أم ستتأرجحين

بين الأرق والصمت؟

- ربما أنا أضعف من المواجهة، وربما الحزن أقوى مما أتصور.

- الصوت:

- إذًا، اقبلي الليل كما هو... ساحة حرب خاسرة، وحقل ذكريات لا نهاية له. هذا هو ثمن الأرق، أن تعيشي وأنتِ مستيقظة في كوابيسكِ.

هاتفي يرن؛ إنها منال! ماذا تريد مني ليلا؟ تبا! لا أريد حديث معها! أففف... كم هي مزعجة! أليس لدي حق في لحظة صمت؟ لحظة أكون فيها مع نفسي، بعيدًا عن أسئلة الآخرين وتوقعاتهم، أجيب بصوت يخفي ضيقي:

صوتها ينساب عبر الخط، مليء بالحيوية التي لا أملكها الآن. تحدثني عن شيء لا أستطيع التركيز عليه، كلماتها تتدفق كالنهر وأنا غارقة في أفكاري. لماذا تقاطع خلوتي؟ أليس الصمت نعمة علينا أن نحترمها؟ لكنني أتنهد، وأعود إلى الواقعية. ربما منال ترى في الحديث ملاذها، وربما في حديثها شيء كنت أحتاجه دون أن أدرك.

- مرحبًا، منال.

جاء صوتها طفوليًا كعادته، لكنه حمل شيئًا مختلفًا هذه المرة، كأنها تحاول إضفاء الحياة على الفراغ الذي بيننا:

- هل نلتقي غدًا؟ لقد اشتقت إليك.

تسلل صمت ثقيل بيننا، شعرت بكلماتها تخترق قلبي، لكن

الحزن الذي يرافقني منذ مدة جعل ردي يخرج باردًا:

- غدًا؟ لا أعلم... ربما.

حاولت أن تخفي خيبة أملها، لكنها لم تفلح تمامًا. قالت بصوت هادئ:

- أعلم أنك مشغولة مؤخرًا، لكنني أفتقد حديثنا... أفتقدك أنت.

أغمضت عيني، وحاولت أن أجد إجابة تخفف من وطأة الموقف، لكنني لم أجد شيئًا سوى الحزن الذي يغرقني.

- أنا فقط... لا أعلم إن كنت جاهزة لرؤية أي أحد الآن.

جاء صوتها هذه المرة أقرب، كأنها تهمس:

- حسنًا، لكنني هنا... متى أردت التحدث.

لم أستطع الرد، اكتفيت بالاستماع إلى صمتها، ثم إلى صوت الخط الذي انقطع.

وضعت الهاتف جانبًا، وابتسمت ابتسامة باهتة. أحيانًا، الحزن يجعل حتى أكثر الأصوات دفئًا تبدو بعيدة.

أرسلت لها رسالة قصيرة: «حسنا، لنلتقي...».

اليوم السابع: المأساة الهادئة

استيقظتُ صباحًا على شعور غريب، كأنني أعيش يومًا مختلفًا، لكنه لم يكن أقل قتامة. شعرت وكأن هذا اليوم يحمل في طياته النهاية، نهاية لشيء لم أكن أعرف بدايته أصلاً. فتحتُ عيني بصعوبة، وكانت الغرفة كما هي، باردة، جدرانها تحاصرني، والأثاث صامت كشاهد على انهياري البطيء.

نظرتُ إلى المرآة المعلقة على الحائط المقابل، كانت تعكس صورة باهتة لي. تقدمت نحوها بخطوات ثقيلة، وقفت أمامها طويلاً، رأيت امرأة لا أعرفها. وجه شاحب، عينان غائرتان، وشعر مبعثر كأفكاري.

- من أنتِ؟

سألت نفسي بصوت مرتجف. الصمت كان الجواب الوحيد، لكن داخلي كان يصرخ:

- أنا ظلٌ فقط، كنتُ إنسانة، لكن الآن... لا شيء.

بدأتُ حديثًا صامتًا مع نفسي أمام المرآة:

- متى توقفت عن العيش؟ متى أصبحتُ مجرد شخص يتنفس بلا رغبة، يتحرك بلا وجهة، يفكر بلا أمل؟ ألم تكوني سعيدة يومًا؟

همس صوت في داخلي، صوت بعيد، كأنه يحاول استدعاء ذكرى مدفونة:

- سعيدة؟

رددتُ الكلمة بسخرية خافتة:

- ربما كنت كذلك، ولكن يبدو أن السعادة كانت حلمًا لم أستطع الحفاظ عليه. السعادة تفرّ، وتتركنا وحدنا نواجه فراغنا.

في منتصف اليوم، قررت أن أخرج، ربما للبحث عن شيء يربطني بهذا العالم. ارتديت ملابسي دون اهتمام، شعرت وكأنها مجرد قشرة تحاول تغطية هشاشتي الداخلية. خرجت إلى الشارع، كان مزدحمًا كعادته، لكنني كنت وحدي تمامًا وسط هذا الزحام.

وقفت على الرصيف، أراقب السيارات المسرعة، والناس المارين بأعين خاوية أو مليئة بالأمل. لم أكن أفهم كيف يمكنهم الاستمرار في العيش، كيف يتحركون بهذه السلاسة، بينما أشعر أن كل خطوة هي حمل لا يُحتمل. اقترب مني طفل صغير، نظر إليّ بعينيه البريئتين، وسألني:

- لماذا تقفين هنا؟

ابتسمت ابتسامة خافتة، محاولة إخفاء الظلام الذي يملأني:

- لا أعرف، ربما أبحث عن شيء ما.

- عما تبحثين؟

سأل الطفل ببراءة، تجمدت الكلمات في حلقي. كيف أشرح له أنني أبحث عن معنى؟ عن سبب؟ عن شيء يثبت أنني ما زلتُ حيّة؟

أنا حية لأن الألم لا يزال ينخر قلبي، لأن الصمت في داخلي لا يكتمل، بل يصرخ بين ضلوعي كأنه يبحث عن مخرج لا يجده. أنا حية لأنني أشعر بالبرد في أطرافي حتى في أكثر الأيام دفئًا، لأنني أستيقظ من نومي وأنا أحمل على صدري أثقالاً غير مرئية، أثقالاً لا يفهمها أحد. أنا حية لأنني أبكي بلا سبب أحيانًا، وكأن الدموع هي دليلي الوحيد على أنني ما زلت هنا، أنني لست ظلاً تلاشى مع الريح. أعيش كل لحظة وكأنها حرب؛ بيني وبين فراغ يلتهمني، بيني وبين ذكرى ماضية ترفض أن تمضي. أنا حية لأنني أكتب، لأن الحروف تنساب من أصابعي وكأنها محاولة يائسة للتشبث بشيء حقيقي، شيء يقول: «أنا هنا». الكلمات التي أكتبها ليست سوى بقاياي، كأنها دليل على أنني لم أذُب بعد في سواد العدم الذي يلتف حولي. أنا حية لأنني ما زلت أشعر بالخوف، الخوف من غدٍ لا أعرفه، من ماضٍ يلاحقني، ومن حاضر يغمرني في ضبابه. لو كنت ميتة، لما شعرت بشيء، لكنني أشعر بالكثير. الحزن يلتهمني، الوحدة تخنقني، والألم يترك بصماته على روحي.

لكن رغم كل ذلك، في وسط هذا السواد، هناك نبضة. نبضة صغيرة، ضعيفة، لكنها حقيقية. إنها تقول لي إنني هنا، وإنني، رغم كل شيء، ما زلت أعيش. أعيش في عالم يلونني بالأسى، لكنه يمنحني القدرة على الكتابة، على التعبير، على ترك أثر ولو صغير في هذا الظلام. أعيش لأنني أرفض أن أكون صامتة كالصخر، لأنني ما زلت أبحث عن شيء، أي شيء، يجعلني أؤمن بأنني لست وحدي في هذا العالم.

آاه، نسييت منال! هههه، أعدت الاتصال بها، لترد بغضب:

- أين أنت؟ أنا أنتظرك منذ ربع ساعة!

(بنبرة معتذرة ومضحكة):

- منال، أرجوك، قبل أن تبدئي بمحاضرتك، اسمعيني...

منال (مقاطعة):

- ما الذي أسمعه؟! تأخرتِ كعادتك، وأنا هنا في الشمس، أذوب مثل الآيس كريم!

- حسنًا، أولاً؛ الشمس في نوفمبر ليست حجة، ثانيًا تأخرت بسبب...

(تصمت للحظة لتفكر).

منال (بلهفة زائفة):

- بسبب ماذا؟ زحام؟ طوفان؟ هجوم فضائي؟

- بسبب فلسفة عميقة اكتشفتها صباح اليوم.

منال (بنبرة ساخرة):

- حقًا؟ فلسفة عن ماذا؟

- عن كيف أن التأخير يجعل الصديقات يعبرن عن حبهن بطرق غير تقليدية! انظري، لو لم أتأخر، لما عرفت أن لديك كل هذا الشوق لي.

منال (تضع يدها على جبينها):

- شوق؟! أنا أشعر بشيء، لكنه ليس الشوق، إنه أقرب إلى الرغبة في قتلك.

- (تضحكين) هذا يؤكد كلامي! كل هذا الغضب يعني أنك تهتمين لأمري!

منال (بابتسامة مترددة):

- حسنًا، لا أنكر أنني كنت أفتقدك قليلاً... لكنك لا تزالين متأخرة!

وهذا ما يجعلني صديقة مميزة، لو كنت دائمًا في الوقت، لأصبحتِ تشعرين بالملل، أنا أضيف بعض الدراما لحياتك.

منال: (تضحك أخيرًا):

- أنتِ إضافة درامية أكثر مما أحتاج، تعالي الآن قبل أن أغير رأيي وأتركك تواجهين شمس نوفمبر وحدك!

- قادمة! لكن لا تشتكي لاحقًا إذا أحضرت معي فلسفة جديدة!

كنتُ جالسة مع صديقتي في ذلك المقهى الصغير، حيث يعم الهدوء في الزوايا وتلتقط الملامح بعض الضوء الخافت من النوافذ. نظرت إليّ، وحاولت أن تبتسم، كأنها تريد أن تسألني عن شيء عادي، مثل أي صديقة تهتم بحال الأخرى. قالت:

- كيف حالكِ اليوم؟

لكنني، قبل أن أفتح فمي للإجابة، أدركت أن السؤال ليس سوى محض عادة، سؤال يمرّ دون أن يلامس القلب، مجرد كلمات تقال لتؤدي دورها الاجتماعي. فابتسمت بهدوء، ثم أجبتها:

- بخير.

لكن في أعماقي، كنت أعلم أن الإجابة كانت كاذبة، مثل كل مرة. كيف يمكن أن يكون الحال بخير، وأنتِ غارقة في عالم من الصمت والذكريات الثقيلة؟ كيف يكون الحال بخير، وأنتِ ترتدين ثوب اللامبالاة لتخفي أسئلة لن تجد لها أجوبة؟

أجابتني هي بدورها، وكأنها قرأت ما في عينيّ:

- أتعلمين؟ في السؤال عن الحال، كل الإجابات كاذبة، نحن فقط نعيش بين الكلمات التي تخرج باردة، بعيدًا عن الحقيقة.

كنت أغمض عينيّ للحظة، ثم ألتقط نفسًا عميقًا، كأنني أود أن أرتاح من عبء ما يخبئه الصمت بيننا. ليس لدينا ما نقوله أكثر من هذا، ليس لدينا ما يمكن أن نخبره عن الحال. فالواقع أقسى من أن يُقال، والحقيقة أبعد من أن تُحكى.

ثم نظرت إليها، وصمتنا معًا، وكل منا تدرك أن الحروف التي نطقنا بها لم تكن سوى قشور سطحية.

أنا: هل تعلمين؟ أشعر وكأنني على أرجوحة في أرض منسية، أتأرجح بخوف، أحاول أن أمسك بشيء حقيقي، لكن... لا أجد سوى العدم.

منال: ولماذا تحاولين؟ أحيانًا، لا معنى للمحاولة، العدم قد يكون هو الحقيقة الوحيدة التي لا تخذلنا.

- لكنني خائفة... خائفة أن أظل أتأرجح بلا نهاية، أن أُنهَك وأتلاشى دون أن أجد شيئًا يتمسك بي.

منال: ربما نحن خلقنا لنتلاشى، لنكون ظلاً عابرًا في أرضٍ لا تذكر أحدًا. الأرجوحة؟ مجرد وهم، والحقيقة؟ ربما هي هذا الفراغ الذي نخاف منه.

- إذن، لا مفر؟ لا شيء سوى العدم؟

منال: لا مفر، نحن نتأرجح لأن الحياة تريد أن تلهو بنا قليلاً قبل أن تسقطنا في هاوية النسيان.

يسرى: هناك أشياء لا أنساها مهما حاولت، أشياء تظل عالقة في الذاكرة كأنها حفرت هناك لتبقى. أتذكر تلك الليلة كأنها كانت البارحة، الليلة التي احترق فيها بيت أمير، ومات كل إخوته...

كان الجو هادئًا بشكل غريب، وأصوات الضحك تأتي من بيتهم. كانوا يلعبون، إخوته الصغار، كعادتهم دائمًا، يملؤون البيت حياة وضجيجًا. أتذكر أنني كنت أسمع صوت ضحكة أخيه الصغير، وليد، وهو يقول:

- انظروا، سأفوز هذه المرة!

لكن كل ذلك انتهى في لحظة...

فجأة، صوت صراخ اخترق سكون الليل، أعقبه لهب بدأ يخرج من النوافذ. النار كانت تبتلع كل شيء، خرجت من بيتي أركض، وعندما وصلت، رأيت أمير واقفًا أمام البيت، يصرخ وكأنه يحاول أن يمزق السماء بصوته:

- إخوتي! إخوتي في الداخل!

لم أكن أعرف ماذا أفعل، كنت عاجزة تمامًا. الرجال الذين تجمعوا حاولوا منعه من الدخول، لكنه كان يقاومهم بجنون. رأيته يحاول أن يقفز نحو الباب المحترق بيديه العاريتين، لم يبالِ بالنار، لم يبالِ بالدخان الذي كان يخنقنا جميعًا. كان يريد فقط أن ينقذهم... لكنهم كانوا بعيدين جدًا عن متناول يديه.

أصواتهم يا منال... تلك الأصوات لن أنساها ما حييت. سمعت صراخهم وهم ينادون: «أمير! أمير، أخرجنا!»، كان الصوت يزداد ضعفًا كل ثانية. وفي النهاية، لم أسمع سوى صوت النار. لم أستطع احتمال ذلك، شعرت كأن قلبي يُقتلع من مكانه. ثم، كما لو أن القدر أراد أن يضع حدًا لكل شيء، انهار السقف. رأيت أمير يسقط على ركبتيه أمام البيت، وكأن النار التهمت روحه معه. بقي هناك، لا يتحرك، لا يبكي، فقط يحدق في اللهب بعينين فارغتين.

بعد أن انطفأت النيران، خرجوا بأجسادهم الصغيرة المتفحمة. وليد، الذي كان يملأ البيت ضحكًا، خرج جسده محمولًا، صامتًا للأبد. أمير لم يتحرك، لم يرفع رأسه حتى، كأنه لم يعد يرى العالم من حوله.

أتذكر أنني اقتربت منه بعد أيام، عندما كان يجلس أمام الأنقاض، قلت له: «أمير، أنا هنا»، لكنه لم يلتفت، لم يقل أيّ كلمة. فقط نظر إلى الفراغ، وكأنه يرى إخوته هناك، يركضون بين الأنقاض، ينادونه بأصواتهم التي لن تعود أبدًا.

منال، لا أعرف كيف يمكن لإنسان أن يعيش بعد أن يخسر بهذا الشكل. كلما رأيت أمير الآن، أشعر أن شيئًا ما مات فيه تلك الليلة، شيء لن يعود أبدًا. الحريق لم يأخذ إخوته فقط، بل أخذ قلبه وروحه معه.

منال صمتت للحظة، ثم أغمضت عينيها وكأنها تحاول استيعاب الألم الذي سمعته للتو. دمعة ثقيلة انحدرت على خدها وهي تقول بصوت متهدج:

- يسرى... يا إلهي! كيف يمكن لقلب أن يتحمل هذا كله؟ مجرد تخيل تلك اللحظة... النار تأكل كل شيء، وأصواتهم تصرخ في الداخل... يا الله، أشعر وكأنني أسمعهم الآن! كيف يمكن لأي أم، لأي أخت، لأي إنسان أن ينسى شيئًا كهذا؟ أولئك الصغار... كانوا يضحكون، يركضون، يملؤون المكان حياة. وفي لحظة، اختفوا. لا... لم يختفوا فقط، بل احترقوا أمام أعين السماء التي لم تبكِ بما يكفي لهم. لماذا تحدث هذه الأشياء؟ لماذا تأخذ النيران أرواحًا بريئة بهذا الشكل؟

تخيلتُ وليد... تخيلته يقف هناك، ينادي، يبحث عن يد تمسك به. كيف كان يشعر؟ هل أدرك في تلك اللحظات أن أحدًا لن يأتي؟ يا الله، كيف؟ هذا الألم وحده كافٍ ليُميت كل من يسمعه.

يسرى، كيف تحملتِ رؤية كل هذا؟ كيف استطعتِ أن تبقي على قيد الحياة وأنتِ تحملين هذه الذكرى؟ لو كنتُ

مكانك، لا أعلم إن كنت سأتمكن من النوم مرة أخرى. النار، الدخان، الصراخ... كل شيء يبدو وكأنه كابوس لا ينتهي!

منال مسحت دموعها بسرعة، لكنها لم تستطع السيطرة على ارتجاف صوتها:

- يسرى، أحيانًا أشعر أن الحياة قاسية بشكل لا يُطاق. تأخذ منا الأحبّة وتتركنا مع ذكريات لا نستطيع أن نهرب منها. لكن... ماذا عنهم الآن؟ أرواحهم الصغيرة... أين هم؟ هل وجدوا الراحة بعيدًا عن الألم؟ هل انتهى صراخهم؟

يسرى، قصتك هذه ليست مجرد قصة. إنها وجع يبقى معكِ، ومع كل من يسمعها. وأنتِ... قلبك كبير لتحملي هذا، لكنني لا أعرف كيف لا ينكسر.

يسرى نظرت إلى منال وعيناها غارقتان في الدموع التي بالكاد كانت تحاول كبحها، لكنها فشلت. صوتها خرج مكسورًا، كأنه يحمل كل الحزن في العالم:

- منال، أحيانًا أتمنى لو لم أكن هناك... لو أنني لم أرَ شيئًا. لأنني مهما حاولت أن أنسى، النار ما زالت تشتعل هنا...

أشارت إلى صدرها وهي تضغط عليه بيدها المرتجفة:

- أسمع صرخاتهم كل ليلة، منال. أصواتهم وهم ينادون... كأنهم يلومونني لأنني لم أفعل شيئًا. كنت أريد أن أصرخ، أن أكسر الجدران، أن أنقذهم... لكنني بقيت هناك، مثل الجبانة، أشاهدهم يختفون.

يسرى غطّت وجهها بيديها، ثم أكملت بصوت بالكاد يُسمع:

- أتذكر وليد، منال؟ كان أصغرهم، أضعفهم... كان يركض دائمًا خلف أمير ويختبئ خلفه إذا شعر بالخوف. لكنه تلك الليلة، لم يجد أحدًا يحميه. تخيلي، طفل صغير وسط النار، يصيح بأعلى صوته: «أنقذوني!»، ولا أحد يستطيع الوصول إليه. كيف أعيش مع هذا؟ كيف أنظر في وجهي كل صباح وأنا أعلم أنني كنت هناك ولم أستطع إنقاذهم؟

منال، كلما رأيت نارًا، حتى لو كانت شمعة صغيرة، أشعر وكأنني أختنق. رائحة الدخان ما زالت عالقة في أنفي. حتى الهواء أشعر به يحترق من حولي. لا أستطيع أن أتنفس، لا أستطيع أن أعيش... لأنني أشعر أن النار لم تأخذهم وحدهم، بل أخذتني معهم. أحيانًا أستيقظ في منتصف الليل، يدي تمتد وكأنني أحاول أن أمسك بيد وليد، أو أن أسحبهم من النار... لكن لا يوجد شيء، فقط الفراغ. الفراغ الذي تركوه، والذي لن يمتلئ أبدًا.

يسرى نظرت إلى منال بعينين مثقلتين بالألم، وقالت:

- منال، النار لم تترك بيتهم خرابًا فقط، لقد تركتني أنا حطامًا... وكلما تذكرت تلك الليلة، أشعر وكأنني أسقط معهم في نفس الحريق، مرة بعد مرة، ولن أخرج منه أبدًا.

كانت يسرى تحدق في منال، ووجهها شاحب بشكل لا يُحتمل. منال كانت بجانبها، عيناها مشدودتان إليها، تراقبها في

صمت، تدرك أن هناك شيئًا عميقًا جدًا في قلب يسرى، شيء ثقيل، لم يكن من السهل أن تتحدث عنه.

وأخيرًا، بعد صمت طويل، تنفست يسرى بعمق، وأخذت لحظة لتجمع أفكارها. كانت الكلمات تخرج بصعوبة، كأنها تخرج من مكان بعيد داخل قلبها.

منال، كنت أظن أنني سأفقد عقلي في تلك الأيام التي تلت الحريق. كنت أرى أمير كل يوم يحاول أن يكون طبيعيًا، يحاول أن يبتسم، يحاول أن يتحدث معنا... لكن هناك شيئًا فيه كان يختفي شيئًا فشيئًا. كان ينهار في صمت، ونحن لا نرى. كان يحاول أن يخفف عنّا، لكن في داخله كان هناك شيء مكسور لا يمكننا إصلاحه.

يسرى توقفت للحظة، وكأن كلماتها كانت تشتعل داخلها، فمسحت دمعة خجولة على خدها.

لم نكن نرى الألم في عينيه، كان يبتسم، وكان يضحك، ولكن خلف تلك الابتسامة كانت هناك جدران تحيط به، جدران لا أحد يستطيع أن يهدمها. كان ينظر إلى الفراغ وكأن العالم كله لا يعنيه، وكلما حاولنا أن نمنحه الأمل، كان يتسرب منه أكثر وأكثر.

يُسمع صوت يسرى الآن وكأنه يتمزق، حزنها يعصر كلماتها. ثم... ثم جاء ذلك اليوم. كانت الساعة متأخرة من الليل، وكل شيء هادئ. تلقيتُ رسالة منه، رسالة قصيرة جدًا، كلمات قليلة، لكن ألمها كان أكبر من كل شيء.

- لن أستطيع الاستمرار، لن أتمكن من العيش بعد كل هذا.

كانت كلماته تلك كالسكاكين في قلبي، لكنه كان قد قرر، ولم يعد هناك مجال للحديث.

دموع يسرى تساقطت بغزارة، وصوتها بدأ يرتجف:

- أمير... رحل... رحل بعدما اعتقد أن الحريق قد أخذ كل شيء منه. عندما فقد إخوته، فقد روحه. لا يمكنني أن أصف لك ما شعرت به، منال. لم أستطع أن أوقفه، لم أستطع أن أحتفظ به. كنت أراه ينهار أمامي ولا أستطيع فعل شيء، وفجأة، رحل، كما لو أن الحياة لم تعد تعني له شيئًا.

يسرى مسحت دموعها بصعوبة، ثم أكملت بصوت مكسور:

- الكل كان يحاول أن يوقفه، الجميع كان يحاول أن يُعيده إلى الحياة، لكن أمير كان قد اختار أن يرحل. كان الحريق قد أخذ إخوته، وكان هو قد اختار أن يأخذ نفسه بعيدًا عنّا. ولم نكن نعرف، منال، لم نكن نعرف أنه كان يقاوم وحده، في صمت قاتل، حتى رحل.

ماذا كان يمكننا أن نفعل؟ كيف يمكننا أن نعيده؟

همست يسرى، وعيناها مليئتان بالحزن العميق، وكأنها تسأل نفسها، تسأل العالم بأسره، لكن الإجابة كانت غائبة.

وأغمضت عينيها للحظة، ثم نظرت إلى منال بعينين غارقتين في الألم. رحل أمير، وأخذ جزءًا كبيرًا منا. الحريق أكلهم، ولكنه أكل أيضًا كل شيء في قلبه، وأصبح بعدها لا شيء... فقط فراغ.

أنا لا أعرف كيف أعيش الآن، كيف أواجه الحياة بعد أن فقدته، كل ما أراه الآن هو تلك الصورة... صورة أمير، وجهه المغمور بالحزن، وحده في الظلام، كما لو كان ينتظر شيئًا... لكنه لن يحصل عليه أبدًا.

وكان الصمت ثقيلاً بينهما، وحزن يسرى كان يطفو في الهواء. لم يكن هناك ما يمكن قوله، فقط الألم الذي يظل عميقًا في القلوب، وفي الذاكرة التي لا تستطيع أن تنسى تلك اللحظات المدمرة.

المساء

عدتُ إلى المنزل مرهقة، ليس من الحركة، ولكن من الصراع الداخلي. أغلقت الباب خلفي، وجلست في الظلام. كنت أحتاج أن أهرب من الضوء، من كل شيء يجعلني أرى نفسي. فتحت النافذة، نظرت إلى السماء الملبدة بالغيوم، شعرت أن هذه السماء تشبهني كثيرًا. مظلمة، فارغة، تنتظر عاصفة تنهيها. تحدثتُ مع نفسي بصوت مرتفع:

«أذكر أنكِ كنتِ تتأففين دائمًا من عادتي السيئة، أنني لا أعرف كيف أنهي حديثنا في المساء بطريقة عادية جدًا، كأن أقول ببساطة: تصبحين على خير.

كنتُ في كل ليلة، أحاول أن أعرف كل شيء عن يومكِ. هل ضحكتِ اليوم؟ هل حدث شيء غريب أو ممتع؟ هل جرّبتِ ذلك الشيء الذي كنا نتحدث عنه؟ هل والدكِ بخير؟ وهل شربتِ قهوتكِ بالطريقة التي تحبينها؟ كنتُ أسألكِ وكأنني أبحث عن سبب إضافي للاطمئنان عليكِ، كنتُ أحب أن أصغي لكل تفاصيلكِ، حتى تلك التي كنتِ تظنينها تافهة، كانت بالنسبة لي كل شيء». وفي كل ليلة، كنتُ أختم حديثنا بشكل مختلف: «تصبحين على ضحكة من القلب، تصبحين على حلم تحقق، تصبحين على هدوء وسكينة». وأحيانًا كنت أقول: «تصبحين على قمر جميل، مثل روحك».

لكن، هل تتذكرين؟ كنتِ تضحكين وتقولين لي: «يكفي! إنه مساء عادي، قولي تصبحين على خير وانهي الأمر!»، وكنتُ أجيب: «لا أستطيع أن أكون عادية معكِ، أنتِ مميزة، ويجب أن تكون أمنياتي كذلك».

اليوم، رغم كل شيء، لا أعرف إن كنتِ ما زلتِ تتذكرين تلك الأحاديث، ولا أعرف إن كنتِ ما زلتِ تحلمين بكل تلك الأشياء التي كنا نتحدث عنها. لكني أتذكركِ جيدًا، أتذكركِ في كل مساء، وأتمنى لكِ بصمت: «تصبحين على خير، على راحة قلب، على حلم جديد، وعلى قمر ينير حياتكِ». وأتساءل دائمًا... هل كنتُ صديقة جيدة بما يكفي لتبقي حديثنا في قلبكِ؟ لماذا كل هذا الألم؟ ماذا فعلت لأستحقه؟

كان صوت داخلي يجيبني: الألم ليس عقابًا، هو فقط رفيقك الآن، ربما لن يتركك أبدًا.

قررت أن أكتب رسالة، لا أعرف لماذا، لكن شعرت أنني أحتاج إلى قول شيء ما، حتى لو لم أكن أعرف لمن أوجهه. كتبت: «إلى من يهمه الأمر، لقد حاولت، أعدكم أنني حاولت بكل الطرق الممكنة. لكن الحياة ليست سهلة كما تبدو، ليست كما يُصورونها في الأفلام، وليست مليئة بالأمل كما يقولون. أحيانًا، تصبح الحياة عبئًا ثقيلاً، وكلما حاولت رفعه، شعرت أنك تغرق أكثر.

أنا آسفة، ليس لأنني أستسلم، ولكن لأنني لم أكن قوية بما يكفي. لم أكن قادرة على الوقوف أمام عاصفة أوجاع كانت تلتهمني من الداخل، كنت أظن أنني أستطيع تحمل كل شيء، أنني سأظل صامدة كما كنت دومًا، لكن الحقيقة أنني مجرد فتاة عادية، تحمل قلبًا مثقلاً بالآلام.

كنت أعتقد أن الصبر هو قوتي، وأن الزمن سيعالج كل شيء، لكن ماذا عن لحظات الضعف التي تتسلل إلى روحي؟ ماذا عن تلك اللحظات التي شعرت فيها أنني لا أستطيع التنفس، أن العالم كله أصبح ثقلاً على صدري؟ أنا آسفة لأنني لم أتمكن من مقاومة الحزن الذي سكنني، ولم أستطع مواجهة الفراغ الذي خلفه رحيلك.

لم أكن قوية بما يكفي لأبقى في مواجهة ما فقدته، كل شيء كان ينهار من حولي، وأنا كنت أبتسم، أخفي وجعي خلف أقنعة الزيف. كنت أظن أنني أستطيع المضي قدمًا، لكن الحقيقة أنني كنت أُسقط نفسي في بحرٍ عميق من الندم. كيف كنتُ أظن أنني أستطيع النجاة، وأنا أغرق في ألمٍ لا يمكنني تحمله؟

أحيانًا، كنت أتمنى لو أنني أستطيع العودة إلى الوراء، حيث كانت الحياة أبسط، حيث كنت لا أحتاج إلى أن أكون قوية طوال الوقت. ولكنني لا أستطيع، والآن فقط أدركت أن الضعف ليس عيبًا، وأنني لست ملزمة بأن أتحمل كل شيء بمفردي. أنا آسفة، لكنني لا أستطيع المضي قدمًا كما كنت أتخيل.

سمعت صوت أمي يقترب من الغرفة، تطرق الباب بخفة:

- هل أنتِ بخير؟

أجبتها بصوت خافت:

- نعم.

لكنها لم تصدقني، فتحت الباب، دخلت وهي تحمل كوبًا من الشاي، جلست بجانبي دون أن تقول شيئًا.

- أنا آسفة أمي.

قلتها دون أن أرفع عيني.

- آسفة على ماذا؟

سألت بصوتها المليء بالقلق.

- على أنني لم أكن الابنة التي تستحقينها.

أمسكت بيدي، وقالت:

- أنتِ دائمًا ابنتي، مهما كنتِ، ومهما شعرتِ، الألم لا يغير هذه الحقيقة.

لكن هل كان ذلك كافيًا؟ هل يمكن لكلمات بسيطة أن تُعيد إنسانًا من حافة الهاوية؟

عندما غادرت أمي الغرفة، بقيت جالسة على الأرض. كنت أسمع دقات الساعة، وكأنها تذكّرني بأن الوقت يمضي. نظرتُ إلى الرسالة مرة أخرى، قرأتها بصوت مرتفع، ثم طويتها بعناية.

هل كنت أستعد لإنهاء كل شيء؟ أم كنت أبحث عن بداية جديدة؟ لم أكن أعرف. كل ما شعرت به هو أنني في لحظة بين الحافة والهاوية، بين البقاء والرحيل. بما النهاية ليست دائمًا واضحة، ربما الألم لا يزول، لكنه يتحول.

في مساء هادئ مشبع برائحة الورود، حضرت يسرى المعرض الفني بدافع الملل والهرب من وحدتها الثقيلة. كانت القاعة مليئة بالزوار، وكل زاوية تحكي قصة مختلفة عبر اللوحات المعروضة. تجولت يسرى بين الأعمال المدهشة، لكنها لم تكن تبحث عن شيء محدد.

توقفت أمام لوحة شدتها بطريقة لم تتوقعها، كانت اللوحة تصور رجلاً جالسًا بجانب قبر يحمل وردًا ذابلاً، وإلى جانبه طفلة صغيرة تنظر إلى السماء ببراءة وأمل. كان المشهد مألوفًا بشكل غريب، وكأنها تعرفه. شعرت يسرى بيد خفية تلمس أعمق زوايا روحها.

حينما استغرقت في التأمل، سمعت صوتًا ناعمًا خلفها:

- هل أعجبتك اللوحة؟

استدارت يسرى ببطئ، وتفاجأت عندما رأت امرأة عجوزا تقف هناك بابتسامة خافتة. تلك الملامح لم تكن غريبة... لقد رأتها من قبل، نظرت إليها بذهول وقالت بصوت متقطع:

- أنتِ... أنتِ العجوز التي التقيتها في المقبرة!

ابتسمت العجوز نسرين برفق، وكأنها توقعت هذا اللقاء، وقالت:

- نعم، تذكرتكِ. كنتِ تجلسين أمام قبر، وكنتِ غارقة في الحزن، لم أنسَ تلك النظرة في عينيكِ.

شعرت يسرى أن قلبها ينبض بقوة، لم تكن تتوقع أن تصادف تلك المرأة هنا، المرأة التي شعرت في لحظة سابقة وكأنها جزء من رحلتها، سألتها بصوت مليء بالدهشة:

- لكن كيف؟ لماذا هذه اللوحة؟ هل ترسمين دائمًا عن الحزن؟

أجابت نسرين بهدوء وهي تشير إلى اللوحة:

- الحزن هو البداية، يا صغيرتي. أحيانًا، الفقد يتركنا عراة أمام أنفسنا. لا خيار لنا إلا أن نحول ألمنا إلى شيء يمكننا العيش معه، أنا أرسم لأن الرسم كان طريقتي للشفاء.

وقفت يسرى للحظات، تستعيد ذكرياتها عن ذلك اليوم في المقبرة، عندما رأت العجوز ترتب الزهور على قبر بدا وكأنه جزء من حياتها، تجرأت أخيرًا وسألت بصوت مرتعش:

- لكن... كيف يمكن للفقد أن يصبح فنًا؟ كيف يمكن أن يكون بداية، وهو ينزع منا كل شيء؟

نظرت نسرين في عيني يسرى مباشرة، بعينين تحملان عمق التجربة، وقالت:

- الفقد يا عزيزتي، يترك فراغًا كبيرًا في حياتنا، لكنه أيضًا يترك مساحة لنملأها. أنا فقدت ابني الوحيد قبل سنوات طويلة، وظننت أنني لن أعيش بعدها. لكنني أمسكت بفرشاتي،

وبدأت أرسم ألمي. مع كل لوحة، كنت أجد طريقًا للخروج من الظلام. الفقد ليس النهاية، بل هو درس قاسٍ يعلمنا أن الضوء موجود حتى في أعمق الظلال.

شعرت يسرى وكأن الكلمات تخترق قلبها، نظرت إلى اللوحة مرة أخرى، ولاحظت شعاع الضوء الخافت الذي يتسلل نحو الطفلة فيها. كان شيئًا لم تلحظه من قبل، همست وكأنها تحدث نفسها:

- ربما... ربما يمكنني أن أبدأ.

ابتسمت نسرين وربتت على كتف يسرى برفق، وقالت:

- يمكنكِ، يا صغيرتي. الحزن ليس عدوكِ، بل هو دليل يقودك إذا أحسنتِ الإصغاء. ارسمي، اكتبي، تحدثي... فقط لا تدعي الألم يسجنكِ.

غادرت يسرى المعرض، وفي داخلها شعور مختلف. كانت لا تزال تحمل ألمها، لكنه لم يكن ثقيلاً كما كان من قبل. لأول مرة، شعرت أن هناك طريقًا آخر ينتظرها... ربما طريق يبدأ بالفراغ، لكنه يمتلئ مع الوقت بلون وأمل جديدين.

سأحاول... أعدك.

يسرى تجلس وحدها في غرفة مظلمة، تمسك بيدها رسالة قديمة من أمير، تشعر بوجوده من حولها رغم غيابه. فجأة، تسمع صوته يأتي من العدم، هادئًا لكنه مليء بالحزن.

أمير (بصوت خافت يشبه الهمس):

- يسرى... أنا هنا.

يسرى (تنظر حولها برعب ودهشة، صوتها يرتجف):

- أمير؟! هذا مستحيل... أنت لست هنا! أنت... (تصمت، تختنق الكلمات في حلقها).

أمير: ميت؟ نعم، أعلم. لكن روحي لم تستطع المغادرة. كنت أعرف أنك تحتاجينني، لكنني كنت أضعف من أن أبقى.

يسرى (تصرخ بغضب وحزن):

- لماذا أمير؟ لماذا تركتني؟ كنت كل شيء لي... كنت أنا أضعف من أن أخسر شخصًا آخر!

أمير (بصوت مفعم بالأسى):

- سامحيني... لم أرد أن أكون شقاءً لك، أردت أن أرحل قبل أن أزيد من آلامك، ظننت أن غيابي قد يحررك.

يسرى (دموعها تتدفق بحرقة):

- حررني؟! لقد كسرتني، أمير. كنت أنت الملاذ الوحيد لي في هذا العالم القاسي، ومع ذلك اخترت الهروب.

أمير: لم يكن هروبًا، بل عجزًا. كنت أبحث عن نهاية لألمي، ولم أكن أرى أنني أسحبك معي إلى أعماقي.

يسرى (بصوت متحشرج):

- ألم تفكر بي؟ ألم تفكر في أنني سأبقى وحدي أحارب هذه الظلال؟

أمير: كنت أفكر بك دائمًا، لم يكن يومًا حبك أقل من عالمي بأسره، لكنني كنت أعمى، لم أستطع رؤية النور الذي كنتِ تمنحينه لي.

يسرى (تهدأ قليلاً، لكنها تبكي بصمت):

- أمير... ما زلت أحبك، رغم كل هذا الألم، لكنك سلبت مني فرصة القتال معك.

أمير: ما زلتِ أقوى مما أستحق، يسرى. أحببتك بكل ما فيّ، ولكن لم يكن الحب وحده كافيًا لإنقاذي، سامحيني...

يسرى (بهمس): سامحتك أمير، لكنني لن أسامح نفسي على عدم رؤيتي لمعاناتك.

أمير: لا تلومي نفسك، بل عيشي. اتركي روحي تهدأ بمعرفتي أنكِ ستجدين طريقك، وأنكِ ستعيشين الحياة التي تستحقينها.

يسرى (بدموع مختلطة بين الحزن والأمل):

- وداعًا، أمير... سأحاول، سأحاول لأجلنا.

الرسالة الأخيرة:

سأقابلك يومًا يا أمير في الجنّة، بعد الموت... أو بعد نهاية العالم. سأقفُ بعيدًا وأنظر إليك طويلاً، أطيلُ التحديق في ملامحك التي لا أنساها، ثم أبتسم. ليست ابتسامة وداع أو اعتذار، بل تلك الابتسامة التي طالما تمنيتُ أن أُهديك إياها، دون خوف، دون حزنٍ مستترٍ خلفها.

سأنتقم يا أمير... ليس منك، بل من كل شيء فرّق بيننا. سأنتقم من المسافات التي جعلت مدننا سجنًا لنا، من فرق التوقيت الذي كان يجعل الليل عندي صباحًا لديك. من الحدود التي جعلت الحب بيننا يبدو جريمة، سأنتقم من جوازات السفر التي حملت أسماءنا إلى أماكن بعيدة عن بعضها، ومن قوانينٍ وضعها البشر، فمزّقت قصتنا. سأنتقم من المجتمع الذي أخافنا، ومن التقاليد التي علّمتنا كيف نخفي قلوبنا خلف أقنعةٍ زائفة. سأنتقم من الوحدة التي دفعتك للبحث عن دفء في مكانٍ آخر، ومن كل لحظة مرّت عليَّ وأنا ألوم نفسي على خسارتك.

لا، لن أعاتبك، يا أمير. فأنا أعلم. أعلم جيدًا لماذا اخترتَ الطريق الذي سلكته، وأعلم لماذا انهارت بيننا تلك الجدران التي بنيناها بحبٍ وشغف. كنتُ دائمًا أفهم، وأظل صامتة، حتى حين كان الصمت يقتلني.

لكني الآن، في هذا اللقاء الذي لا يفصله عن الأبدية شيء، سأترك كل ذلك خلفي. سأمسك يديك مجددًا، لكن هذه المرة لن أفلتهما. سأقبض عليهما بكل ما أوتيتُ من قوة، كما لو أنني أقبض على روحي ذاتها. سأخبرك، بين حديثنا عن الأشياء الصغيرة التي أحببناها، أنني لم أتوقف يومًا عن حبك، حتى في اللحظات التي ظننتَ فيها أنني نسيتك.

سنتحدث، كما كنا نفعل، عن كل ما حلمنا به ولم نحققه. عن أسماء أطفالنا التي اخترناها كالأطفال، مدينتنا التي بقيت شاهدة على أجمل أيامنا، سنتذكر أغنيات فيروز التي كنا نظن أنها خلقت لنا وحدنا. وسنسمعها الآن، معًا، كما كنا نحلم دائمًا.

لا أعرف يا أمير، إن كان في الجنّة ليل أو نهار، إن كان فيها وقتٌ يُحسب أو مشاعر تُفسّر، لكنني أعلم أنك ستكون معي، كما تمنيتُ طوال حياتي. لن أتركك تخاف مجددًا، لن أخذلك أبدًا، ولن يكون هناك ما يفرقنا بعد الآن.

سأنظر إليك طويلاً، وأبتسم. ليس لأنني انتصرت، بل لأنني أخيرًا، وجدت السلام في عينيك».

(يتلاشى صوته تدريجيًا، وتعود الغرفة إلى صمتها، لكن يسرى تشعر بشيء من السلام يلامس قلبها لأول مرة).

الفهرس

اليوم الأوّل: مع أوّل ضوء ١٧

اليوم الثاني: هل سيعود الفـرح؟ ٢٣

اليوم الثالث: غروب بلا شروق ٢٧

اليوم الرابع: انطفأت شموع الأمل ٣٠

اليوم الخـامس: رحلة إلى الماضي ٣٥

اليوم السادس: ٤٢

اليوم السابع: المـأساة الهادئة ٤٧

المساء ٦٢

سأحاول... أعدك ٧٩

الرسالة الأخيرة: ٧١